القائد إلى عيون العقائد

الإمام عبد الحميد الفراهي

الدائرة الحميدية

القائد إلى عيون العقائد

تأليف

الإمام عبد الحميد الفراهي

صاحب تفسير

نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان

الدائرة الحميدية

الطبعة الثانية ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

تطلب جميع كتبنا من:

الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، يو-بي، الهند

ثمن النسخة: ٣٠٠ روبية

Al-Qa'id Ila Uyoonil Aqa'id

By

Imam Abdul Hameed Farahi

Published by: **Dairah Hameedia** Madrasatul Islah, Sarai Meer
Azamgarh, U.P. (India), Phone: +91 5462 256022

Distributed by: **Al-Balagh Publications**, N-1, Abul Fazl
Enclave, Jamia Nagar, New Delhi-110025
Phone: +91 11 26942592
E-mail: abpublications@gmail.com
Price: Rs. 300.00

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، الهادي إلى الصراط المستقيم ، ثم الصلاة على جميع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

أمابعد فهذا كتاب مسمى **بالقائد إلى عيون العقائد** ، وهو جزء من مقدمة نظام القرآن ، وإنما أفردناه اجتنابا عن تكرار البحث في أصل كتابنا ، وجمعنا فيه من العقائد ما دل عليه القرآن بالتصريح ويطمئن به القلب الصحيح ، ولم نتعرض للبحث عن ما نشأ في العقائد من المسائل المبتدعة التي أثارت اختلافات ولم تمس بها حاجة في الدين ، وإنما نذكرها في آخر الكتاب لنحذرك عنها لا لنشغلك بها ، ولتعلم أن الولوع بها والاختلاف فيها مضر ومنهي عنه نهيا شديدا .

وجعلت الكتاب قسمين : قسما في الأمور الكلية ، وقسما في تفاصيل ما يصح ويجب الاعتقاد به .

أما القسم الأول ففيه ------- أبواب ------- وأما القسم الثاني ففيه ثلاثة أبواب :

باب في الألوهية ، وباب في الرسالة ، وباب في المعاد ، وهذا بحسب التفصيل وإلا فجميع العقائد يدور حول نقطة واحدة ، وهي العقيدة في الألوهية .

وهذا القدر من الأبواب يكفي إن شاء الله تعالى لكل ما يتعلق بعيون العقائد الصحيحة

الحكم بالحق والباطل

في العقائد علم الحق والباطل و معرفة الخير و الشر، فلا بد من فهم معاني الكلام في الإثبات و النفي، والمدح والذم، فإن الأمر الواحد ربما يكون باطلا من وجه و حقا من وجه آخر، وكذلك خيرا من وجه وشرا من وجه آخر، فاشتدت الحاجة إلى علم المعاني وأساليب الكلام، وعلم الشرائع وأسباب الأمر والنهي، وعلم أصول التأويل، فإن قبل الحكم بالحق والباطل، والخير والشر لا بد أن تصيب صحيح المعنى، والتأويل الصحيح موكل إلى علم النظم، ثم علم النظم يأخذ من هذه العلوم كلها ، فهذه العلوم كأركان بنيان واحد يشد بعضها بعضا ، وتحس بشدة هذه الحاجة إذا رأيت جل اختلافهم وإنكارهم ونكير بعضهم على بعض لاختلافهم في فهم وجوه المعنى ، ولذلك أمروا بالتوقف في أمور ، فقال عليه السلام في أمر أهل الكتاب : لا تصدقوهم ولا تكذبوهم "وقال تعالى :﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾[1]. وفي مثل الأمور المشتبهة يمتاز الراسخون في العلم من الذين لا يعلمون إلا الظاهر ، فهولاء لغرورهم بما علموا يستنكفون عن التعلم والتأمل ، فيقعون في الإنكار ويجترؤن في جنب الدين ويضلهم الشيطان وهم درجات :

فمنهم من يجاهر بكفره ومنهم من يكتمه وينكر ببعض الكتاب

---

[1] سورة يونس الآية : ٣٩ .

ويؤمن ببعضه ..... أولئك هم الكافرون حقا ، ومنهم من ينكر بأكثر ما جاء عن الرسول بواحا ، ومنهم من يتذبذب بين الشك والإيمان .

وأما الراسخ فيقف في ما لا يفهمه من النص ، ويعلم أنه لا يعلم تأويله ، وهذا أجدر به ، فإما يبقى في هذا الحال وإما يكشف الله عليه ما شاء ، فحينئذ يجد أن الذي لم يفهمه وأشكل كان لجهله ببعض وجوه المعنى ، وأما المنكر فقلما يهتدي بل يزداد إنكارا وبعدا .

وهذا مذهب التوقف الذي حمدته يقتضي تفصيلا وبيانا ، فإن المؤمن لا يؤمن بباطل ولا يكون ما يعتقده عليه غمة ، فنذكر مواقفه و دلائله ونبين حقه وباطله

من إفاداته

لا تقل هذا حق وهذا باطل ، وهذا خير وهذا شر قبل أن تعلم وجوه ذلك الأمر، قال تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾[1] ولذلك لم يكذبوا بأكثر الأحاديث.

قول النبي ﷺ " لا تكذبوهم ولا تصدقوهم "[2] أمر بالتوقف والكف عن الحكم فيما لا يعنيه ....

---

[1] سورة يونس الآية : ٣٩ .

[2] أورده البخاري في كتاب الشهادات، باب لايسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء .

موضوع الاعتقاد

(١) إن الله تعالى أمرنا بالإيمان بما بيّنه، وفطر عقولنا وقلوبنا بالقبول له، فلم يجعله مشتبها لا في كتابه ولا في عقولنا، وهو جماع العقائد من التوحيد والرسالة والمعاد.

ثم ذكر تفاصيل لهذه الأمور، ومنها ما لا سبيل إلى علمه إلا بالخبر، ومنها ما لا سبيل إلى تصويره لقصور علمنا وتجربتنا، فلم يكلفنا بتأويله بل رضي عنا بالإيمان الإجمالي، ورد ما اشتبه إلى المحكم الذي بينه وشيده ، فالرسوخ في العلم أن تثبت على المعلوم ولا تتهالك على المظنون الذي يصوره الظن والتخمين .

(٢) طريق العقل تشتمل على مسائل مخلوطة من اليقين والمشتبه ، وأما طريق الوحي، فبيّنة إذا لم يخالطها القياسات المظنونة ، فلا بد من التوقف في كل ما لم يثبت من جهة صريح العقل ونص الوحي ....

العقيدة ليست إلا ما يعتقده القلب ، وذلك لا يكون اللفظ المحض ، بل لا بد له من معنى ، وأقل ذلك المعنى المجمل .

فأما الألفاظ المحضة كاليد والساق وغيرها ، فلا تدخل في العقائد ، والقول بهذه الألفاظ بدعة ، إنما جاء الوحي بالمجملات فلا نزيد عليها، فنقول: ﴿ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾[1] ولا نقول إن الله تعالى يدا وقدما وساقا وغير ذلك ، والفرق بين القولين ظاهر.

---

[1] سورة المائدة الآية : ٦٤ .

فهرس المباحث التي نورد في القسم الكلي

(١) العقائد ليست من العلوم المحض كما يتوهم ، بل هي أيضا داخلة تحت الإرادة ، فإنها تعلقت بها الرغبة والنفرة ، فلا بد من معرفة ما يصلحها ويفسدها من الأخلاق ومن العلوم ، وكذلك لا بد من معرفة تدبير الإصلاح بمعرفة ترتيب العلاج ، والقرآن هدى إلى كل ذلك وتفصيل ذلك في (كتابنا) حكمة القرآن .

(٢) العقائد ليست بالظن ، فلا يعتمد فيها إلا على صحيح النقل وصريح العقل ، ولذلك وجب الاكتفاء بقدر ما يحتمله المعتقد ويكون فيه على بصيرة وإيقان ، ولذلك قلت مسائله في عهد الصحابة فإنهم اعتقدوا ما علموه وصدقوه ، وإنما كثرت في ما بعد لفساد القلوب وقلة التقوى وسخافة العقول وغلبة اللجاج .

(٣) بسط اللسان في العقائد يجر إلى التقول على الله من غير علم ، وشناعته ظاهرة وقد صرح بها القرآن كثيرا ، ولو كان للعقل سبيل إلى تفاصيل الأمور الإلهيّة لكان في غنى عن الرسل ، العقل كثير الخطاء في تفاصيل الأمور التمدنية حتى يستضيء بما أنزل الله من هديه ، فكيف بالإلهيّات ؟ فلا بد من الاكتفاء بما ثبت بالتصريح من الكتاب والسنة ، وكان أساسا للدين الفطري المسمى بالإسلام .

ثم للعقل مجال وسيع في تطلب الدلائل التي أودعها الله النفوس والآفاق فإنها لا تحصى ، ليزداد بصيرة ونورا واطمئنانا ، وفي تعيين المراد

برد المشتبه إلى المحكم والحكم باليقين وترك المظنون ، وفي تطبيق بعضها ببعض حتى لا يكون تناقض فالعقل ليس بمعطل في طريق النقل أيضا بل هو المعتمد في فهم معاني النقل ، وهو المخاطب في ما نزل علينا .

(الحاجة إلى الرد إلى الله والرسول)

(٤) قد رأينا اختلافا عظيما في العقائد ، حتى نشأت فرق متضادة واختلفوا كل الاختلاف ، فكفر بعضهم بعضا ، ولم يكن ذلك إلا لخوضهم فيما لم يكن لهم إليه سبيل ، فتقولوا بما لم يثبت واستنتجوا من بعض النصوص ما يخالف بعضا آخر منها وقد نهوا عن ذاك ، فالطريق القويم هو الانتهاء حيث انتهى النص والاعتصام في العقيدة والعمل بالمحكم ، مثلا في مسئلة الرؤية قال تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾[1] فظن قوم أن الرؤية محال ، وقد جاء في صحيح الحديث:" المؤمنون يرونه "[2]. وقد نطق القرآن بما يؤيد ذلك ، فقال تعالى في شقاوة الكفار : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[3] فظن قوم إنهم يرونه يوم القيامة ، وأن آية الإدراك مخصوصة بالدنيا ثم تمسك كل واحد منهما بدلائل عقلية ونقلية

[1] سورة الأنعام الآية : ١٠٣ .

[2] أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، وأبو داؤد في كتاب السنة باب في الرؤية. ورواية الحديث فيه عن جرير بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ جلوسا فنظر إلى القمر ليلة البدر ليلة أربع عشرة، فقال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا، لا تضارون في رؤيته.

[3] سورة المطففين الآية : ١٥ .

وتشاجرا فيما لا يغني في الدين . ومسلك الصحابة الإيمان بـكل ما جاء به الرسول ، واليقين بأن الكتاب والسنة لا يناقض بعضه بعضا ، فنعتقد بأن الله تعالى لا تدركه الأبصار ومع ذلك نعتقد أن المؤمنين يرونه من غـــير حجاب ، ولا مناقضة بين الـــعقيدتين وهكذا في كل مسئلة مختلف فيها .

مثار الزيغ في العقائد

وهو مثار الاختلاف والنـــزاع

كل من تمسك بأمر بيّن واضـــح عنده ، يسعى للتوفيق بينه وبين مـــا سواه ، لينفى التناقض من بين معتقداته ، وهذان فريقان :

منهم من يلتمس التوفيق بين النصوص الشرعية

ومنهم من يلتمس التوفيق بين النقل والعقل .

وطريق التوفيق وعر ، فربما يلبس عليه فيخطـــئ ويحتـــاج إلى التأويل البعيد للمحكات .

ثم منهم من يتمسك بالعقل فيجعله أصلا ، ومنهم من يتمسك بالأحاديث ، ومنهم من يتمسك بالقرآن ، والطريق المثلى هو التمسك بصحيح النقل وصريح العقل ، ثم الكف عـــن التـــأويلات البعيـــدة ، والتوقف في ما لا علم له به .

أمر الله بذلك والنبي ﷺ ، والمحدثون والسلف الصالح اتخذوه طريقا ، كما قال تعالى : ﴿ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ

أنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[1] وقال : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾[2]
..... (بياض في الأصل)

الاختلاف في الأمة

(١) قد شنع القرآن على الاختلاف كثيرا ، حتى نظن أنه جماع الضلالة وسخط الله ، وكذلك نعلم بالعقل مساوي الاختلاف ، فإن المحبة والمؤاساة أحسن الأخلاق بل هي أصل جميع الخيرات وضدها الاختلاف ، ومع ذلك نرى بعض الاختلاف لا بأس به بل لا بد منه ، كاختلاف الأذواق والأطوار والآراء في جزئيات الأمور ، فلا بد أن نكون على بصيرة في هذا الأمر .

فاعلم أن القلوب لا تتنافر بالاختلاف الذي يتعلق بفعل خاص بالفاعل كما ترى في المآ كل والملبس ، إلا أن يجر إلى دلالة اختلاف القلوب كزي يختصه قوم ، وقريب من ذلك أكثر الأعمال الجزئية كاختلاف الشافعية والحنفية ، إلا أن يبلغ حد التنافر جمودا على الظواهر كما نرى الجهلاء منهم ، ولكن القلوب تتباغض إذا اختلفت في حبهم وبغضهم كاختلاف اليهود والنصارى ، أو كاختلاف شيعة عثمان وشيعة علي رضى الله عنهما ، أو الخوارج والروافض ، فإن مبغض الحبيب بغيض ، فالآن ننظر في مبادى هذا الاختلاف وتناهيه .

---

[1] سورة البقرة الآية : ٣٢ .

[2] سورة الإسراء الآية : ٨٥ .

من إفـــادته

قـــال تعـــالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[1] هذا يهدي إلى جواز الغل بين المـــؤمنين ، ولكـــن لا ينبغي أن يجر إلى اختلاف قومي فينهدم أساسه وكـــذلك آيـــة : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴿٩﴾ ﴾[2] تـــسامح بابتـــداء اختلاف حتى يفضي إلى الإصرار ....

(٢) .... (بياض في الأصل)

تذكـــرة

الاختلاف لا بد منه ولكن الخلاف منهي عنه ، صورنا مختلفة وكلنا إنسان ، المتعمقون جعلوا الاختلاف خلافا ، الذي يجمعنا هو الاقتصار (على ما ظهر واستبان) في المؤاخذة . وأما أعمال محض التأمل ، فلا بأس لمن وفق له ....

التوقف وطريق الراسخين والزائغين

اعلم أنه ليس من شرط العقل ، التسرع إلى جانب من القبـــول والرد إلا بعد العلم والفهم إنما طريقه أن يؤمن بما استبان له واطمأن به قلبه ، وإذا جاء إليه أمر من بعض طرق العلم ولما يبلغ حـــد الـــيقين لم

---

[1] سورة الحجر الآية : ٤٧

[2] سورة الحجرات الآية : ٩

يتبادر إلى الحكم فيه بنفي أو إثبات ، بل تبين أمـره ، ووازن قـدره ، ونظر في نتائجه ونسبته بالأمور الأخر فحينئذ هو من جهـة القبـول والإنكار يجده على أحد الوجهين : إماهو يعنيه ، وإما هو لا يعنيه ، فإن كان مما لا يعنيه يتركه ولا يحكم فيه بشئ ، فإن للعاقل شغلا شاغلا بما يجب عليه ويهمه. وإن كان مما يعنيه ، فإن وافقه ما عنده مـن الـيقين رجح جانب القبول ، وإن لم يوافقه توقف عـن رده و لم يتبـادر إلى الإنكار به. فإن الحكم سواء كان إثباتا أو نفيا ، لا بد أن يكون مبنيـا على قاعدة راسخة ، والقلب السليم والعقل المستقيم لا يزيغ عن جادة العلم واليقين ، فلا يتخطى إلى جـانب من القبـول أو الـرد جهـلا وضلالة ، ولا يدعي أنه يعلم ما لا يعلم ، بل يرده إلى علم الله ويعترف بجهله في كثير من الأمور .

وهذا هو طريق التعلم وطلب العلم ، فإن المرء بقدر إحـساسه بجهله يتشوق إلى العلم ، وبقدر فرقه بين ما يعلم وبين ما لا يعلم يعدل في الحكم ويعتمد على المعلوم ويستمده في ما لا يعلمه ، فهو راسخ في علمه فلا يزيغه عنه جهل ولا يسلبه إياه شبهة ، وأما المتسرع في رأيه ، فيجعل العلم والجهل سواء ، ويجعل الظن لليقين بواء ، فلا ينتفع بما علم ويضل بعلمه أكثر مما يضل بجهله ، ويستحوذ عليه نزغات النفس ، فربما يتخذ الباطل مذهبا ، وظنه أنه يشيد الدين ولكنه يهدمه ولا يعلمـه ، وأبواب الغرور كثيرة وخدعات الشيطان جمة ، وعلامة هـولاء عـدم التقوى والإعجاب بالرأى والغلو فيما لا يعني. فالعلماء الراسـخون ،

الخاشعون ، المتقون ، المعترفون بقلة العلم ، المعرضون عـــن اللغـــو ، الطاوون الكشح عن المراء ، الواثقون بالعلم اليقين ، المعتصمون بحبل الله المتين ، وقد هدانا الله ورسوله إلى هذا المنهج القويم والصراط المستقيم ، فنورد على ما ذكرنا صريح النقل كما أوضحناه بصريح العقـــل ، والله تعالى هو الهادي إلى الرشد .... (بياض في الأصل).

من إفـــاداته

الراسخون في العلم لا يتركون المحكمات لمـــا عرفـــوا الحـــق ، ويعرفون وجوها للكلام فلا يكذبون بما أشكل عليهم من وجـــه ، ولا يعضون بالعادات ، فإنهم ينظرون إلى الحقـــائق المجـــردة عـــن تـــصور الطبيعة....................

العقيدة في السلف الصالحين عموما وخصوصا

لا يكفي لنا أن نعرف الحق والباطل على إطلاقهما ، بل لا بد أن نضم به معرفة أهليهما والقائمين بهما . قال تعالى في ما علمنا من الدعاء الوافي : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾[1](فهذا هو الحق على إطلاقه ، ثم ضم بذلك قوله) ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝٧ ﴾[2] أي النبيين والصديقين والشهداء والصالحين كما بين في سورة النساء ، والقرآن .يفسر بعضه بعضا فهذا تعريف الحق بأهليه ، ثم ضم بذلك

---

[1] سورة الفاتحة الآية : ٦ .

[2] سورة الفاتحة الآية : ٧ .

تعـــريف الحق بذكر أصحـــاب الباطل ، وبضدها تتبين الأشياء فقال : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[1] وقد فسر القرآن والحديث من هم هولاء الذين نسأل الله تعالى أن يبعدنا عن صراطهم . وهكذا قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[2]وفي هذا فوائد :

الأولى : أن يتضح لنا سبيلهما ويتبين لنا تفاصيلهما .

والثانية : أن في الانسلاك في جماعة الأتقياء المنعمين عليهم عونا على السلوك في طريق التقوى ، فتقوى نفس الـــسالك علـــى عمـــل الصالحات .

والثالثة : أن العبد يأخذ من الصلحاء بعضهم أنموذجا لنفسه لما يرى مناسبة بينه وبينهم ، فيسهل عليه تربية خلقه الحـــسن ، فيكـــون مقتفيا لأثر من جعله نصبا لعينه .

وعلى هذا الأصل جعل في الأتبياء مثالا لنا وأمرنا باتبـــاعهم ، وهم تركوا أمة مثالا لمن بعدهم ، وجعلهم شهداء على الناس كما جعل الأنبياء شهداء على أصحابهم ، ليبقى للناس سلسلة متصلة وحبلا متينا وصراطا مستقيما وسنة واضحة . كأنّ الخلف مع السلف قافلة واحدة لا انقطاع فيها ، ونور ممدود لا ظلمة بينه ، وهذا هو معنى الـــشهادة كمانذكره ....

---

[1] سورة الفاتحة الآية : ٧ .

[2] سورة النساء الآية : ١١٥ .

الشهـــادة

النبي شهد بالله وكتابه وما فيه ، وأصحابه شهدوا لمن تـــبعهم وهذا إلى الآن .

فهذه الشهادة أمانة عظيمة عليهم وبذلك ميثاقهم كمـــا جـــاء مصرحا ، وأعظم هذه الشهادات كتابه وتعليمه. وأوجب أمر على الأمة الإيمان بهذه الشهادة وذويها والمنكر بالشهداء ينكر بالشهادة ، ولذلك لا إيمان للشيعة بالكتاب ، وإنما وقعوا في هـــذه الـــضلالة لإنكـــارهم بالشهداء ، و .... (بياض في الأصل)

من إفـــاداته

مثال أبي بكر ﷺكمثال الـــصفا وحـــواري عيـــسى عليه السلام ، وأفضليته عليهم يظهر من عزمه عندما اشرأبت الردة ، وعند ما كـــان النبي ﷺ يدعو في العريش وهو معه ، وحواري عيسى عليـــه الـــسلام عجزوا عن الدعاء معه فناموا ثم ناموا حتى يئس عليه الـــسلام

في موضع العقل والنقل والعقائد والشرائع

قد خاصم القرآن المنكرين والمكذبين فأفحمهم وألزمهم بالدلائل حتى لم يترك لهم إلا المكابرة وطلب الآيات المحسوسة من الخوارق أو العذاب ، ولكن الله تعالى لا يعجلهم بهذا القسم من الآيات رحمة بهم ، لكي يؤمن منهم من فيه أدنى نزوع إلى الحق فيكون من المؤمنين حقا والحائزين سبقا ، فإن من لم يؤمن بالدلائل الواضحة قلما يؤمن بعد رؤية الخوارق ، ولكن الله تعالى يريهم هذه الآيات إتماما لحجته ، وليس بعد ذلك إلا الإعراض عنهم ثم تعذيبهم . والقرآن قارع بحججه المكذبين فلم يخاطبهم إلا من طريق العقل ، وأما المؤمنون فزادهم بها إيمانا على إيمان ورفع به درجاتهم فإن المؤمن إذا ازداد حكمة وبصيرة وعلما ويقينا ازداد خشية وحبا لله ، وبذلك ازداد قربا منه ، قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴿٨٣﴾ ﴾ [1]وقال ﴿ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴿١١﴾ ﴾ [2]وقال :﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ ﴿٢٨﴾ ﴾[3] هذا .

فلزمنا في هذا الكتاب أن لا نعول إلا على العقـــل الـــصريح ، والتعويل على العقل في أصول المذهب هو مذهب أهل الـــسنة ..... و ذلك بأن الخطاب بالأصول عام ، والناس أجمعون مطالبون بالإيمان بها ،

---

[1] سورة الأنعام الآية : ٨٣ .
[2] سورة المجادلة الآية : ١١
[3] سورة الفاطر الآية : ٢٨ .

وأما الفروع فلا شك أنها مبنية على المصالح وقد دل القــرآن عليهــا ، ولكن المعول فيها على النقل ، فإن المخاطب بها المؤمنون الذين آمنــوا بالرسول وبكتاب الله ، وبايعوا على الطاعة ، كما ترى القرآن يصرح بذلك حين يخاطبهم بالأحكام بمثل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنــوا ..﴾ فهم مطمئنون بعقولهم أن الله ورسوله لا يهديهم إلا إلى صــراط مستقيم ، وهذا الحكم العام من عقولهم يغني عن مطالبة الدليل في كــل حكم ، ثم هذه الفروع مبنية على مصالح دقيقة مشتبكة لا يطلع علــى مصالحها إلا من كملت له قوة الاجتهاد وأسبابه ، ثم لا يسوغ التأخير في الأعمال ، فلو عولوا فيها على العقل ، كفوا عن العمل حتى ينظروا وفيه مفسدة عظيمة ....(بياض في الأصل)

تذكــرة

علم المصالح في الشرائع مع كونه زيادة في العلم ، لا يلتفت إليه في التعبد ، فإن العبد يطيع ربه لمحض أمره ، ولكن ههنا فرق وهــو أن من هذا العلم ما يحتاج إليه في صحة النية وتصحيح آداب العمل ، فــلا بد من الدلالة على هذين وإحضارهما عند العمل ....

الباب الأول

في الألوهية

الله نور السماوات والأرض

ما يرى شيء إلا بالنور ، ولكن النور نفسه لا يرى ، وربما لا يلتفت إلا إلى ما يرى ، وحينئذ ربما ينكر بالنور .

فالكافر يرى الخليقة بالله ولكن ينكر به ، ومن المؤمنين من لا يلتفت إلى ما سواه ، فيوشك أن لا يرى إلا النور، فسبحان الذي ظهر على قلب واستتر عن قلب مع ظهوره .

في طريق استدلال القرآن

قد دلنا القرآن على صحة العقيدة فيما يتعلق بمعرفة الرب تعالى بطرق مختلفة متفاوتة في درجات الدلالة ، ونذكرها بالترتيب :

فأولها طريق التسمية ، وهو أبلغها وأوضحها وأوثق ما يعتمد عليه . فإن الاسم ألزم وأقدم وأدل على المسمى من غير لحاظ إلى ما سواه . وهذا موافق لعادة عامة لا سيما عادة العرب ، فإنهم أصح الأمم إصابة في التسمية . وإنما جعل الاسم للدلالة على المسمى ، فمن عرف الشيء باسمه الصحيح فقد عرفه .

والطريق الثاني هو طريق الوصف بصفة ، وهذا دون التسمية ، فإن الشيء قد يوصف بصفة ولا يسمى بها

والطريق الثالث هو نسبة الأفعال ، وهذا دون الأولين . فإن بعض الأفعال ينسب إلى شيء على طريق المجاز وللمجاز أبواب كثيرة ، وهذه المدارج قد ذكرناها ببعض البسط في كتاب أصول التأويل فلا نعيده ، والعاقل تكفيه الإشارة .

والطريق الرابع ما يدل عليه نظم القرآن وهذا لطيف جدا ، ولكنه طريق واضح بيّن عند أهل الفكر والتدبر ، فإن الكلمة إذا وضعت في جنب كلمة أخرى أو ضم كلام مع كلام آخر ، دل على أمور جمة كما ستعلم في ذكر الأمثلة ، وتفصيل ذلك في كتاب دلائل النظام .

فهذه أربعة طرق وإنما ذكرنا الرابع أخيرا لدقته لا لضعفه ، كما أن الأول أوثق مع أن شرح الأسماء يقتضي تأملا وإمعانا ، ويهتدي إلى معناه الصحيح بالطرق الثلاث وبتوفيق بعضها ببعض ، وذلك أصل راسخ ، والآن نبتدأ بتفصيل ما يستنبط بالطرق الأربع .

الطريق الأول وهو المعرفة من أسمائه تعالى

قال تعالى :﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[1] فعلمنا أن الله والرحمن من أسمائه الخاصة التي ندعوه بها على طريق الاسم ، وهكذا نعلم من كلام العرب فإنهم لم يستعملوا هذين الاسمين إلا لله تعالى . وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾[2]

فهذه أيضا أسماء نصفه بها ، وأما أن ندعوه بها فمستنبط غير مصرح به ، وطريق الاستنباط ظاهر ، فإن قوله تعالى: ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ دل على أن ندعوه بأسمائه الحسنى ، ثم قوله تعالى بعد سرد أسماء أخر : ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ دل على أنها منها ، ثم

---

(1) سورة الإسراء الآية : ١١٠ .

(2) سورة الحشر الآية : ٢٢ – ٢٤ .

نظم قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝ ﴾[1] يشبه نظم تلك الآيات الجامعة لأسمائه .

ثم جاء من صفاته تعالى على طريق الخبر كقوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ۝ ﴾[2]

فاحتمال كونها أسماء كاحتمال كونها صفات ، فوجب إعمال الفكر ، وطريقته المثلى أن نجعل أسماءه الحسنى المصرحة بها أصلا ونرد الصفات والأفعال إليها ، وأبين أسمائه وأصرحها الله والرحمن فنجعلهما أصل المعرفة بالرب تعالى .

تذكرة

الوجوه الظاهرة من أسمائه تعالى **الحق** وبينه على طرق التسمية والوصف والفعل والنظم كلها ، قال تعالى : ﴿ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ (أي جزائهم) ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ۝ ﴾[3] ...

الجحود إنكار بالرباب ، والإلحاد زيغ في وصفه ، والشرك جعل غيره مثله ، وكل هذه الثلاثة مختلطة من جهة ، فإن الشرك إلحاد وجحود بالرب حقيقة .

---

[1] سورة آل عمران الآية : ٢ .
[2] سورة البروج الآية : ١٤ – ١٦ .
[3] سورة النورة الآية : ٢٥ .

لا خالق إلا الله

الخلق إما هو إيجاد شيء من غير مادة ، أو تبديل شيء إلى شيء آخر ، أما الإيجاد ابتداء فمفهوم ولكن كيفه لا يدرى وأما التبديل فمشتمل على تدبير عجيب ، وحساب متقن ، وحركة سارية في أدق أجزاء الشيء فالإيجاد والتبديل كلاهما عجيب ، والتبديل ليس بأدون من الإيجاد ، بل هو مركب من إفناء وإيجاد ، مثلا تبدل الحركة إلى الضياء والبرق وتبدل التراب إلى الدهن والسكر واللحم والعظم والأزهار والأثمار ، والأجسام الحية من أعجب الأشياء وأغمضها .

الملاحدة أنكروا الإيجاد من غير مادة ، لا بدليل بل ادعوا فيه البداهة تمسكا بأن هذا أكبر من أن نفهم ، ونسبوا التبدل إلى قوى طبعية لما أنهم رأوه عيانا ، فلا بد له من نسبة إلى سبب ، فنسبوا إلى الطبائع ووقفوا هناك .

ولكن لكل أمر ذي حكمة وتدبير ومنافع ، لا بد من مريد حكيم ، قادر ، رحيم ، والطبائع ليست كذلك ، ثم هذه الحكمة راجعة إلى توحد في العالم ينظم بعضها ببعض ، فتحيروا ونسبوها إلى طبيعة واجدة وسعت العالم مع كونها خالية عن إرادة وعلم .

لو جاز نسبة الخلق الجزئي إلى الطبائع الجزئية ، لجاز نسبة الخلق العالم إلى طبيعة عامة واحدة حاكمة على العالم بأسره ، فليس الفرق بينهما إلا من جهة المقدار ، فإن حقيقة العقيدتين واحدة ...(بياض في الأصل)

إثبات الإله الواحد الرحمن

(من نفس اليقين)

اعلم أن ما توقن به إما هو البديهي و هو ما ورد عليك وأيقنت به من غير فكر وتدبر ، أو هو النظري وهو ما تكتسبه من البديهي بنظرك في الخارج ، ويقابله الفكري وهو ما تقف عليه بفكرك في نفسك ، وهو درجتان : أدناها الفطري وهو يطيعه العقل لا لظهوره بل لكونه حاكما عليه ، فهو أساس للعلم البديهي كاليقين بصحة حواسنا ، وأعلاها الجذري وهو الذي أودع في جذر فطرتنا ، وتفصيل ذلك في كتاب حجج القرآن ، فإن أنكره أحد أظلم عليه كل ما علمه .... و(من) ذلك يقينه يكون فاطره غنيا وحميدا ...... فإن لم يطمئن بذلك قلبه لم يطمئن بشئ ، فلم يفرق بين النور و الظلمة والحق والباطل ، واليقين له طبقات بعضها فوق بعض .

فإن نفيت يقينك بما أنت مفطور باليقين به و أيقنت على رغم أنفك ما تعيش به هذا العيش الضنك و عميت عما عليه مداره فكفرت ، وإن أحسنت الظن بفاطر خلقك واستدللت بما ترى من نعمه وحكمه فحمدته وآمنت به ، ونعمه الظاهرة في السماوات والأرض وفي نفسك تدلك على رحمته وهذه تدلك على صحة فطرتك ، فالإيمان بعلة أولى غير عالم رحيم لا يحل إشكالا حتى تؤمن بخالق عليم رحيم ، ولذلك جاء في القرآن كثيرا صفة الله تعالى بكونه عالما حيا كما قال في آية

الكرسي وغيرها وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾[1] فوصفه بالوحدانية والعلم ....

ثم لا يأمن أحد سوء عاقبة الشك إلا أن يؤمن بخالق واحد رحيم قاهر لا ينازعه شريك ، فإن المجوس كيف تطمئن بأن بارئه ليس هو أهريمن ؟ أم كيف يطمئن مشرك بأن لم يخبط فطرته إله كان ضـــدا لإلهه ؟ وإلى هذه حالة المشركين يلمعنا قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[2]

وإذ كان القلب مجبولا على طلب الاطمئنان في علمه ولا سبيل إليه إلا بـــأن يؤمن بالله الواحد الحميد ، فالظاهر أنه مفطور على التوحيد ، وهكذا هدانا القرآن حيث قال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[3] (أي لا ينبغي لأحد أن يبدل هذه فطرته التي كتبها الله في قلبه ظلما واتباع هوى وجهلا ، فإنه تعالى قال قبل هذه الآية) ﴿ بل اتبع الذين ظلموا (أى أشركوا) أهواءهم بغير علم ، فمن يهدي من أضل الله ومالهم من ناصرين ﴾ أي بعد أن اتبعوا أهواءهم سلبوا نور الهدى نتيجة لما فعلوا حسب فطرة الله التي جعل النتائج السيئة للسيئات ولذلك قال بعدها (٣١) ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ (لكي يفيض عليكم الهداية) وَٱتَّقُوهُ (لكيلا

---

[1] سورة طه الآية : ٩٨ .
[2] سورة الحج الآية : ٣١ .
[3] سورة الروم الآية : ٣٠ .

يضلكم) وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ (لكسب الإنابة) وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[1] (الذين اتبعوا أهواءهم فضلوا وزين لهم الباطل كما قال بعد هذا(٣٢): ﴿ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ (ثم ذكـــر بعد ذلك أن التوحيد فـــطرهم من جهة أخرى) ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[3] أي عن الريب والهوى.

التوجه إلى الله أقوى ما جبلنا عليه

مما مر بك ظهر أن الإيمان بالله لـــيس ببـــديهي ولا نظـــري مكتسب ، بل هو مما أودع في جذر فطرتنا وصـــميم علمنـــا ، وإنمـــا يكشف عنه بالفكر في أنفسنا وهذا من جهة العلم ، وإذ أن النفس ذات إرادة ورغبة كما هي ذات علم ، فلها توجه إلى ربها قبل كل رغبـــة ، وانبعاث هذا التوجه بالفكر والذكر .... (بياض في الأصل)

من إفـــاداته

طريق أرسطو أبعد عن حث الانتقال الفكري ، وإنما هو تحليـــل بعد الانتقال ، والانتقال اثنان :

إما من الصفات إلى الذات و إما من الذات إلى الصفات .

---

[1] سورة الروم الآية : ٣١ .

[2] سورة الروم الآية : ٣٠ .

[3] سورة الرعد الآية : ٢٨ .

وذلك بأن النفس مفطورة بالإيقان بإضافة بينهما ، ولما كانت الذات مجهولة إلا بصفتها ، فإذا علمت صفة وتعينت لها ذاتا ، طلبت زيادة في علم الذات فطلبت صفات أخر لها ، فذلك سؤالها ما هي ، وبه تعلم صفات الذات وذلك انتقالها من الذات إلى الصفات .

ولكن ربما علمت صفة و لم يتعين لها ذات لتلك الصفة ولابد ، فأيقنت بها من جهة هذه الصفة فقط ، ثم طلبت مما عرفته من قبل ما يصلح بالاتصاف بتلك الصفة ، فإن لم تجد جعلت الذات شيئا ما متصفا بتلك الصفة ، وتصورت ذاتا مناسبة بتلك الصفة ، وذلك يدل على قوة أخرى في النفس ، وهي تصورها للذوات حسب الصفات ، وبناؤها :.التمييز بين النفس وغير النفس ، فلا تصف بالإدراك والإرادة إلا نفسا مدركة ، مريدة ، وبالصفات التي لا نصيب فيهنا للإدراك والإرادة إلا مادة تقوم بها تلك الصفات ، وطلب النفس ذاتا مناسبة هو سؤالها لم .

والنفس في هذين الانتقالين لسريعة جدا ، وليس ذلك على طريق ذكرها أرسطو ، قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾[1] أي لا بد لهم أن يقولوا ذلك. وهذا مثال فطرة النفس في تعليقها الصفة بالذات المناسبة لتلك الصفة ، ومن هذه الأمثلة فرض الهيولى وكل قوة مدركة أو مادية ....

---

[1] سورة الزخرف الآية : ٩

من إفـــاداته

إذا قلنا إنا لا نوقن بشيء لم نثبته إلا بدليل ، فالمراد : إنا لا نوقن بشيء يعلم بالاستدلال ويكون تحته ، فإن الاستدلال نفسه مبني علـــى الإيمان بالبديهي من المحسوسات وبقواعد الاستدلال ، وهما على صحة الفطرة في باطننا وخارجنا ، أي صدقها وبقاءها على طبيعتها وأثرهـــا علينا . وهي مبنية على العلم برحمة الخالق وعدله الكامل و وحدانيتــه (أي القدرة الغالبة مطلقا) والرحمة تدل على فقرنا إليه ، وبناء الحكمـــة على الرحمة فإنه لا حكمة لو لم تكن لذة أو فائدة لنا ..... (فهو خالق الجميل) كل ذلك من الرحمة ، و الحكمة نتيجة القدرة الكاملة وكذلك العلم ، والرحمة الكاملة هي الغنى التام وهو القدرة الكاملة ، فالرحمة هي التي تسع القدرة ، والحكمة ، والخلق والعدل ، فهي المركز واسمه تعالى الرحمن أو الله ولا فرق بينهما .... (بياض في الأصل) .

في ما وراء الطبيعة

(١) الوجود متيقن ، الوجود لا يولد من عدم محض ، فلا بد من موجود قديم .

(٢) الوجود لا ينحل إلى أعم منه ، فهو الذي هو قديم.

(٣) التغير متيقن ، وهو ظهور القوة ، والقوة لا تولد من عـــدم القوة، فالقوة قديمة .

(٤) عدم القوة محال ، فلا بد من خفائها قبل ظهورها

(٥) فالوجود والقوة قديمان وهما واحد ، فإن الوجود لا يسلب عن قديم ولا يربو على القوة .

(٦) لا علم إلا علم قوة ، فكل علم شهادة على قوة (ذي قوة).

(٧) القوة من غير المدرك قسر ، والقسر المحض يبطله النظام المشهود ، فثبت أن القادر عليم .

(٨) علم الوجود والقوة علم إضافة ويلزم الإيمان بالمضاف إليه المجهول ذاتا ، فصار الإيمان بالقادر العليم القديم ضروريا .

(٩) العلم الحادث من الأثر فلا يعلم المؤثر إلا بقدر الإضافة ، فلا سبيل إلى علم كنهه لنا ......

غلبة الشر على الخير كثيرة حتى ظن المستعجلون أن لا نفع في الخير ، ولكن التفكر في أسماء الله تعالى يهدي إلى الحق. انظر كتاب ملاخي ٣ : ١٣-١٨ .[١]

---

[١] " ١٣ ــ أقوالكم اشتدت علي قال الرب ، وقلتم ماذا قلنا عليك .١٤ ــ قلتم عبادة الله باطلة، وما المنفعة من أننا حفظنا شعائره واننا سلكنا بالحزن قدام رب الجنود . ١٥ ــ والآن نحن مطوبون المستكبرين وأيضا فاعلو الشر يبنون بل جربوا الله ونجوا . ١٦ ــ حينئذ كلم متقو الرب كل واحد قريبه والرب أصغى وسمع وكتب أمامه سفر تذكر للذين اتقوا الرب وللمفكرين في اسمه . ١٧ ــ ويكونون لي قال رب الجنود في اليوم الذي صانع خاصة وأشفق عليهم كما يشفق الإنسان على ابنه الذي يخدمه . ١٨ ــ فتعودون وتميزون بين الصديق والشرير بين من يعبد الله و من لا يعبده "

(قال الفراهي رحمه الله : يكثر زمان غلبة الشر على الخير ولا يظهر أن الخير يفلح ، لكن التفكر في اسم الرب تعالى يهدي إلى أن الحق غالب .)

الطريق الثاني وهو المعرفة من صفاته تعالى

(في إثبات الصفات)

اعلم أن الصفات ترجع بعضها إلى بعض وتؤول إلى الذات ، ولكن الذات المجردة من الصفات مفروضة لا حقيقة لها ، مثلا السمع والبصر من العلم ، والعلم من القدرة ، والقدرة من الحياة. وكذلك العلم من الحياة، والحياة من القدرة، والبقاء من القدرة ، والخلق من القدرة ، وهذا مبسوط في محله. والمقصود ههنا أن النزاع بين أهل السنة و المعتزلة في هذه المسئلة إنما هو نزاع لفظي .

المعتزلة لم ينكروا بعلم الله وقدرته و سائر صفاته ، إنما أنكروا بكون هذه الصفات زائدة على ذاته حتى يلزم تعدد الواجب والقديم ، وكون الله في عين ذاته خاليا عن العلم و القدرة ، فقالوا إنه عالم بذاته لا بعلم يكون صفة زائدة عليه .

والأشاعرة قالوا إن البداهة فارقة بين الذات والصفات ، فالصفات لابد لها من حامل وهو الذات ، والذات المجردة عن كل صفة أمر مفروض ، وأن الصفة لا تتقلب ذاتا فقالوا إن الله تعالى لم يزل عالما ، قديرا ، مدبرا ، سميعا ، بصيرا ، فصفاته قديمة واجبة ولايلزم تعدد القدماء ، فإن الصفات لا تتفرق عن الذات و لم تكن موجودة خارجة عن الذات بل كانت مع الذات أبدا ، فلا تعدد إلا في الانتزاع العقلي .
وأيضا قالت المعتزلة إنه يلزم على مذهب الأشاعرة التركيب و الافتقار ،

وأجيبوا بأن التركيب لا يعقل إلا بين شيئين متفارقين في الوجود ، و أما الذات و صفاته فلا تركيب بينهما ، خذ أي ما شئت من البسائط تجدها ذاتا مع صفة ، ولن تجد ولا تتعقل ذاتا مجردة عن كل صفة .

ولكن هذا البحث من التعمق وما أمرنا الله تعالى بذلك بل نهانا عنه وعن المراء في الأمور فيما لا نفع فيه ، وقد رأينا ضرر هذا المراء وأما لدفع إلزام المخالفين فيكفينا فيه إيراد المنع على ما يلزموننا ، ولا حاجة لنا إلى وضع مذهب مبتدع ، فنقول كما ورد وهو الظاهر عند العقل

صفات الله تعالى

هو تعالى ذو الجلال والإكرام ، كما علمنا القرآن ويذعن به العقل ، فإن المدح إنما يكون بما هو الجليل والجميل ، ومثل ذلك قوله تعالى ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴿٢٣﴾ ﴾[1] فالملك جهة الجلال ، والقدوس جهة الجمال ، ثم كذلك ثلاث صفات الجمال ثم ثلاث صفات الجلال . ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾[2]فالعزيز الحكيم مثل الملك القدوس ، الأول صفة الجلال والثاني صفة الجمال ، فإن القدوس جمال الخلق والحكيم جمال العقل

---

[1] سورة الحشر الآية : ٢٣ .

[2] سورة الجمعة الآية : ١

ومثل ذلـــك : ﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾[1] وهكذا : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾[2]، وهكذا : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾[3] وهكذا : ﴿ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾[4] ، فاطر : ١٥ ، الحديد :٢٤ ، الممتحنة : ٦) وهكذا (العزيز الحميد) (سبأ: ٦، البروج:٨، وغيرذلك .

نبهنا القرآن على صفات الله التي غفل عنها أكثر الناس .

فاعلم أن الله تعالى جعل بعض صفاته ومظاهره كأنها هو ، فمنها العدل والحق والعدالة ، حتى إنه يجعلها بدلا عن نفسه كأنها هو كما قال : ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ ﴿١٤٢﴾ ﴾[5] أي لما يعلم العدالة التي هي نائبة عنه تعالى أنهم مجاهدون ، فحكم العدالة حكمه وعلمها علمه. وهذا ذكر عدالته في صورة الشريعة ، ثم العدالة العامة وملكوته الوسيع مثل ذلك تنوب عنه كما قال : ﴿ خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴿٢﴾ ﴾[6] أي ليظهر أعمالهم في عالم الشهادة والخلق

ومنها الرحمة والمظلوم ، فقال : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

[1] سورة التغابن الآية : ١

[2] سورة البروج الآية : ١٤-١٦ .

[3] سورة الملك الآية : ٢ .

[4] سورة لقمان الآية : ٢٦ .

[5] سورة آل عمران الآية :١٤٢

[6] سورة الملك الآية : ٢

وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾[1] ، فجعل المستضعفين بدلا عن نفسه كناية عن كون نصرتهم نصرة الله تعالى. ومثل ذلك قوله تعالى :﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴿٤٠﴾ ﴾[2]أي من ينصر الضعفاء والعدل والسلم ، فإن الله تعالى هو الناصر ولا ينصره أحد ......

النظر في صفات الجلال والجمال

والفرق بين الملل بحسبها

لا يخفى أن الصفات الحسنة ليست كلها على درجة واحدة في شرفها ، فإن هذا القدر ظاهر لا نحتاج إلى إثباته ، وعلى هذا الأصل ننظر فيها لنعلم الأفضل والأوسع .

فاعلم أن من الصفات ما يمكن تصريفها إلى غير حسنة ، كالقدرة والإرادة ، والعلم والمعرفة .

ومنها ما لم يمكن تصريفها إلا إلى الخير ، كالعدل ، والحكمة ، والشكر ، والطهارة ، والكرم ، والعفاف .

فإن قلت إن هذا الفرق ليس من جهة الحقيقة وإنما هو من جهة الألفاظ ، فإن الأولى عامة والثانية خاصة في الخير .

---

[1] سورة النساء الآية : ٧٥

[2] سورة الحج الآية : ٤٠

قلنا لا ننكر ذلك ، ولكن نريد أن نوجهك إلى أمرمهم ، وذلك أن تميز بين هذه المعاني ولا تنسب إلى شيء منها إلا ما هو حقه ، و الآن فلننظر في بعض الصفات على سبيل التمثيل ، ثم نبحث عن جهات الخير فيها .

(الف) الرحمة : هذه الصفة وأمثالها كالمودة والأسى والرأفة والعفو والمغفرة والإنعام والإحسان والجود وغيرها مع كونها من أعلى الصفات الجميلة إنما هي كذلك إذا وضعت في محلها

(ب) الغضب : هذا وأمثاله كالسخط والقهر واللعن والانتقام والتعذيب وغيرها مع كونها من أبعد ما يكون من الصفات الجميلة ، هي أفضل منها إذا وضعت في غير محلها . فإن العفو عن الظالم والتسوية بين المحسن والمسيئ عين الجور والظلم ، فإن السخط والانتقام ههنا هو العدل والقسط .

(ج) القدرة : وكذلك العلم ويدخل معهما من الحياة والإرادة والعمل والعظمة والكبرياء وغير ذلك ، مع كونها أوائل الصفات الجميلة ومع كمال وسعتها إنما تستحق المدح إذا استعملت للرحمة الجارية على سنن العدل والكرم . وقد دل نظم القرآن في غير موضع على ذلك ....

مما قدمنا من الأمثلة والتنبيهات يسهل عليك معرفة جهة المدح والحسن في كل صفة ، وإن إيرادها في موقع المدح يستدعي أن جهة حسنها وشرط مدحها ملحوظ فيها ، ولذلك ربما يضم به ما يبين هذه الجهة كالغني الحميد ، والعليم الحكيم ، والعزيز الغفور ، والملك

القدوس العزيز الحكيم ، ومثل السلام المؤمن المهيمن ، العزيز الجبار المتكبر ، وهذا كثير يطول استقصاءه ، وقد عرفه السلف فجعلوا صفات الرب تعالى قسمين : صفات الجلال وصفات الكمال .

(٢) فإن تبينت ما ذكرنا من الفرق ، نوجهك إلى الفرق بين آثارها في القلوب ، فلا يخفى أن صفات الجلال تجلب التعظيم والخوف والمدح ، ولكن صفات الجمال تجلب المحبة والرجاء والحمد . ثم ترى صفات الجلال أظهر وأقدم إلى الحواس ، وصفات الجمال أمس بالعقول والقلوب ، ومع أنه لا يكون دين صحيح إلا إذا بني على كلا الوصفين ، ربما يغلب بعضهما على بعض لاختلاف عقول الناس وطبائع الأمم ، وعلى هذا ترى فرقا واضحا بين الملل المختلفة.

فمنها ما يغلب فيها تصور الإجلال والخوف ، فأهلها إن لم يغلب عليهم أسباب أخر وجروا على مقتضى ديانتهم وتصورهم لمعبودهم ، كانوا أشد خوفا وتعبداً ، فإن كانوا خلاف ذلك كان دليلا على شدة قسوتهم وصلابة رقابهم .

وكذلك منها ما تصور آلهه على غاية الرحمة والقدس ، فأهلها إن لم تفسدوا كانوا أشد رحمة وطهارة ، فمن وجد منهم على خلافه كان دليلا على فسقه وخروجه بالكلية عن ديانته وطبيعتها .

ومنها ما جمعت كليهما ، وذلك أكمل الأديان وأوسطها ، ولكن القيام على الوسط وجمع الأمرين صعب جدا ، لاختلاف العقول والطبائع ، واختلاف الأحوال والأوقات. فهذا الدين الوسط مع جمع

الأمرين له مزاج خاص ، والآن نذكر طرفا منه .

(٣) لا بد أن يكون صفات الجمال أغلب في النظر إلى الرب تعالى ، وصفات الجلال تكون ملحوظة على سبيل المواتاة بالأولى ، فإن الرحمة مثلا لا تنفذ إلا بالعلم والقدرة والعدل والغضب . وهذا معنى " سبقت رحمتي على غضبي ".[١]

ثم إذا نظر إلى النفس كان ذكر الجلال أقدم ثم أطفأ غلواء الخوف واليأس بذكر الجمال كما قال : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[٢] وأبدا يكون الفرار إليه من النفس ومن الدنيا ، فهو الملجأ والمأوى وهو المعبود ، والمستعان وكذلك يكون الفرار إليه عند غلبة آثار الصفات الجلالية . ومن ههنا قول النبي ﷺ : " اللهم إني أعوذ بك منك "[٣]

وبالجملة فليكن الرب تعالى في قلبك كريما ، رحيما ، عفوا ، غفورا ، ضاحكا ، متبسما ، ملاطفا في كمال الجمال والرأفة ، أكرم الكرماء وأرحم الراحمين ، ناصرا لك ، منتقما من أعدائك لتسكن إليه وترغب في قربه وتشتاق للقائه. ثم تعلم أنه قدوس وهو الحق المبين ، فمحال في العقل أن لا يفرق بين المحسن والمسيء . أو يتقرب إليه الخبيث المتدنس الظالم العنيد ، مناع للخير معتد مريب ، الملح المصر

---

[١] أورده البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ١، رقم الحديث : ٣١٩٤ .

[٢] سورة الزمر الآية : ٢٣ .

[٣] رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود .

على مخالفة الحق والخير ، ولكنه تواب لمن تاب وبدل حسنا بعد سوء . ثم بعد ذلك لا يزال مذكرا لكمال عظمته وكبريائه ، ليحافظ على الأدب والخشوع ، ويعلم أنه لا حاجة له إلى أحد من الخلق غني عن العالمين ، رفيع الدرجات في تدبيره . فمع أنه لا يحكم إلا بالحق والرحمة لا يعلمون منه إلا بقدر ما يليق بهم ، فيجب التسليم لما قضى والرضى بما أمر ونهى فهذا العبد المتصف بالمحبة للرب والشوق للقائه ، وبالخشية لاستغنائه وكبريائه ، وبالأدب والتسليم لقضائه يتعبد له ويفر إليه ويتوكل عليه ولا ينظر إلا إليه .... (بياض في الأصل)

من إفاداته

الوجود المحض باطل . وجود القوة المطلقة هو الذي يفهمون من الوجود المحض . القوة المطلقة بسيطة وتعدد الصفات خيال باطل ينشأ من تحديد القوة مثلا : البصير هو السميع ، وهو الخالق، وهو القادر ، وهو الرحيم ، وهو الحكيم ، وغير ذلك .

بعض الكليات ليست منتزعة ، بل عبارة عن أصل نشأت منه الجزئيات ، .... وهذا هو وجود قوة علم وهي ليست بكلية منتزعة من الجزئيات ، فكذلك القوة ليست كلية منتزعة من القوى المختلفة (وهذا يقتضي تفصيلا وبحثا مشبعا) ....

الخلق ، والكلام ، والإرادة ، والمشيئة ، والفعل وأمثالها من

الصفات لها مراتب في الوجود ، وأسماؤها لا تتبدل . فهي مشتركة بين هذه المراتب للمسمى .

فيطلق على وجودها في الموصوف قبل استعمالها

وعلى وجودها حين يستعملها .

وعلى ما حصل بعد الاستعمال .

وعلى هذا الحاصل في مواضعه المختلفة

من إفـــاداته

صفات الرب تعالى غير مسلوبة عنه ولا مكسوبة لكمال الرب ، فهي واجبة . وكل حادث هو بإرادة الرب ومشيئته ، والإرادة صـــرف القوة إلى مشيئته ، والإرادة ليست من الصفات بـــل عارضـــة للقـــوة وحركة فيها ، والإرادة الأبدية معناها مصدر الإرادة فما شاء كـــان ، ولذلك سمي شيئا .

وكل مشيئة الرب واجبة تقديرا وحادثة وجودا ، والقضايا الحق واجبة ولا وجود لها مستقلا فهي موجودة بوجود القاضي ، والـــرب يقضي بالحق ، فالحق دائم . مثلا : الحكم بحسن العدل وقبح الظلم ....

لا يكون الواجب إلا قديما ، فلا تبديل في سنته أي طريق جريان صفاته القديمة . فلا يفعل إلا ما يشاء ، وكل ما يشاء فهو خير من جهة مشيئته ، فإن صفاته حسنة جميلة فهو منتهى الخـــير ، فـــلا بـــد مـــن

التفويض. والرضى بما قضى ، فلا مجال لسوء الظن .

والإيمان والمعرفة بصفاته تنشئ فينا أحوالا بحسبهما ، والجمـــال ينشئ المحبة ، فلا بد من الرضـــا والطمأنينـــة والتوكـــل والتفـــويض. والمطلوب أن نقمع مخالفة النفس حتى تطمئن وترضى بالرب . وفطـــرة كل شيء الإذعان لرضى الفاطر ، فالمخالفة هدم الفطرة ومنبع القلـــق والألم والهلاك ....

من إفـــاداته

العلم بالذات يظهر من العلم بالصفات ، ثم تصير الذات موضع الفكر ، فيزداد بها البصيرة ويتبين الصحيح من السقيم وينفى المناقض . وعلى هذا الأصل النظر في صفات الرب الحاصلة من الآيات يصحح ما كان من الخطأ ....

لا يخفى أن طريق الاستدلال من صفات الله تعالى إما باللزوم او بالخلف ، فنؤمن بكل ما يلزم صفاته ونبطل كل ما يخالفها ويضادها .

إن الله تعالى لا يخالف سنته وقد علمتم من سنته ما دل علـــى صفته ، وصفاته واجبة ، فلا بد من إجرائها على العموم ....

كيف توقن بأن زيدا مثلا ذو عقل ؟ بعمله ـــ وكيـــف دلالـــة

عمله على عقله ؟ بتخصيص علة لمعلول فيربطهما ولا يربطهما إلا علم وإرادة . وأول الأدلة نطقه وجوابه .

فإن كان تخصيص علة لمعلول دليلا على وجود العقل فما لـــك تشك في وجود العاقل المدبر في الكون ؟......................

الطريق الثالث

وهو المعرفة من نسبة الأفعال إلى الله تعالى

قد علمنا من القرآن والكتب المقدسة أن الله تعالى ينسب إلى نفسه نتائج أمره وأفعال ملائكته ، وليس المراد رفع الوسائط ولكنه يخبر أن ذلك بأمره ، وإذنه وحسب سنته . ولذلك نرى أنه تعالى ينسب إلى نفسه الإضلال ، والفتنة ، والانتقام ، وختم القلوب ، وإذهاب النور ، والنسيان . فالبصير بلسان الوحي وهداياته لا يشك في أن ذلك ليس إلا بيان سنته الحكيمة ذات الرحمة والعدل ، وإنما اختار هذا الأسلوب فإنه أبلغ تخويفا وأقرب فهما لعامة الناس .

وقد علمنا من كتب الوحي ولا سيما من القرآن أن الله وسيع الرحمة ، لا يظلم العباد ولا يريد ظلما .

ونرى أنه يحب العدل والرحمة ، وأجرى شرائعه على الرحم والمؤاساة . ثم فطر قلوبنا على حب هذه الخصال ، وأودع عقولنا اليقين بكونها المحاسن وخلافها المساوي . وأن الله تعالى علوا كبيرا عن صفات الشر وسمات القبح ، فتعاضد العقل والوحي في هذا الأمر ......

نسبة فعل إلى الله تعالى

الأفعال تنسب إلى الله تعالى على وجوه واللسان يحتمل هذه الوجوه ، ولكن يختلفون في تعيين الوجه في أفعال خاصة ، و من أصول

التأويل أن العبارة إذا احتملت وجوها كثيرة فيؤخذ منها ما هو أحسن و أوفق بالنظائر وبالعقل وبمسلمات العقائد وهذا أصل راسخ ، وقد رأيت أن كثيرا من الناس يغلطون لمجرد أنهم لم يعلموا بعض الوجوه ، فيبادرون إلى وجه يؤيد عقيدة اخترعوها ....

اعلم إنا نرى أمورا لا ننسبه إلا إلى الله تعالى كالخلق والإيجاد و الرزق وكل ما فيه الخير العظيم الذي يتعالى عن قدرة المخلوق ، ولكن نرى أمورا ضارة وقبيحة فلا نحب أن ننسبها إلى الله تعالى ولاشك أن الله تعالى بريء من كل قبيح ، ولما أن الشرور والذنوب واقعة ، وقدرة الله تعالى محيطة بكل شيء وكذلك علمه ، فكيف أنه تعالى لا يدفعها ؟ ففزعوا إلى أجوبة شتى ولا يستوي أحد منها ، وقد هدانا الوحي إلى الفرق والتمييز ، وإلى التوقف والكف عما لا نعلم ، وإلى حسن الظن بالله تعالى وتنزيهه عن كل سيء .

أما الفرق : فالأفعال لها نسبة إلى مصدرها من وجوه مختلفة والمدح والذم متفرعان على حسب هذه الوجوه ....

الأمور خيرها وشرها كلها تنسب إلى البارئ تعالى ، ثم تنسب إلى مصادرها القريبة كما قال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴿٧٨﴾ ﴾[1] (فنسب الكل إلى البارئ تعالى) ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ

---

[1] سورة النساء الآية : ٧٨ .

يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [1](ثم أراد أن يبين أن الشر من حيث أنه شر مصدره ليس البارئ تعالى فقال: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴿٧٩﴾ ﴾ [2]فبين حكمة واضحة ، وذلك أن الله اسمه الرحمن والرحيم والودود والرؤوف ولا اسم له ضد ذلك ولكنه يغضب ويسخط وينتقم ، فنسب هذه الأمور إلى أفعاله وهي لحكمة وتدبير ومآلها إلى صفاته من الرحمة والعدل والحكمة وغيرها من أمهات الصفات ، وهذا مثل ما نأول الآيات المتشابهة إلى أم الكتاب ومحكمه ،

لا يخفى أن نسبة الحسنة والسيئة إلى الله تعالى من جهة إيقاعهما وإلى نفوسنا من جهة الاستحقاق لهما ولذلك قال : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

وهكذا نسب الضلالة إلى ذاته تعالى كما قال : ﴿ يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ﴾ ثم بين مصدر الضلالة فقال :﴿ ۞ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [3]وهذا كثير ....

تنسب الأفعال إلى الله تعالى :

١ــ لكونه علة العلل .

---

[1] سورة النساء الآية : ٧٨ .

[2] سورة النساء الآية : ٧٩ .

[3] سورة البقرة الآية : ٢٦-٢٧ .

٢ـــ لما جعل من الأسباب فأخرج ما لم يكن ليخرج لولا توفيق منه بين أمور كثيرة . مثلا: ﴿ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾[1]. فالليل ليس من حقيقته السكون ولكن خلق الإنسان وكثيرا من الحيوان والنبات بحيث أنهم يسكنون في الليل ، فهذا بنسبة المخاطب. فهذه النسبة ليست بمحض أنه علة العلل ، بل لما أراد وجمع بين المتباعدات وأنتج من الفوائد فالغاية والفائدة بإرادته فنسبة ذلك إليه أولى .

٣ ـــ نسبة فعل لمحض نتيجته كالنسيان .

نسبة الفعل إلى البارئ تعالى لدلالة الفعل على النتيجة كما قال : ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾[2]والنسبة إلى المتم أولى ، كما قيل : بنى الأمير الحصن وفتح البلدة ، ونحوها ماجاء في القرآن: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[3].

للآية تأويلان الأول أنه خطاب إلى الكفار ، والثاني أنه خطاب عام . فالمعنى أن مشيئة الخير الخاص وهو الانتفاع بالقرآن موقوف على توفيق الله تعالى ، وتوفيق الله يكون حسب عمل العبد وحسن جهده وخضوعه . فإن الله تعالى قد أخبر عن أحوال الظالمين أنه لا يتيسر لهم الرشد فقال: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي

---

[1] سورة الأنعام الآية : ٩٦ .
[2] سورة الواقعة الآية : ٦٤ .
[3] سورة الإنسان الآية : ٣٠ .

ﭐلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾[1] وأمثال ذلك

أما التاويل بالقدر فليس من القرآن في شيء ، بل القرآن قد أبطله حيث تمسك به المشركون . ومن ههنا ضرورة التضرع ، والدعاء والخشية من الخذلان ، والتوكل على الله ، واليأس من غيره ، ومنشؤه منه الحب لله تعالى ....

من إفاداته

قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[2] وقال أيضا: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴾[3].

(١) التمييز بين الضدين والمتقابلين أولى . فنميز بين الظلمة والنور ، والحلو والمر ، والعلو والسفل ، واليمين والشمال ، والظلم والقسط ، والحسن والقبح ، والنقص والزيادة والمساواة .

فإن قيل إن ذلك إضافي ، قلنا نعم لا وجود لحكم الخير والشر والحسن والقبح إلا من موافقة من يحكم أو من مخالفته ، ولكن مع ذلك يمكن أن يكون الحكم الإضافي دائما ، وذلك إذا كان بناؤه على حاكم أبدي الصفات . ومعنى الموافقة والمخالفة هو أن يكون من صفاته أو خلاف صفاته . مثلا نقول إن الظلم قبيح لأنه مخالف لصفات الرب

[1] سورة الأعراف الآية : ١٤٦ .
[2] سورة الزمر الآية : ١٨ .
[3] سورة الشمس الآية : ٧-٨ .

تعالى ، والقسط حسن لأنه موافق لها .

فإن قيل إنه لا يسأل ، بل كل ما يفعله فهو خير وقسط . قلنا نعم فإنه هو مرجع كل حكم ، فما يفعل فهو خير لأنه أراده وارتضاه واختاره ، ولكن لا مناقضة في صفاته، فليس أنه يريد مرة ما يوافقه وصفاته ومرة ما يناقضه وصفاته ، فإن صفاته لا تتبدل . وقال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.[1]

(٢) إنه تعالى أخبر عن صفاته الحسنى ، وفطرنا على التمييز حسب تلك الصفات ، فنستحسن العدل والإحسان ونستقبح الظلم والسوء . ولولا ذلك كيف أمكن لنا أن نشكره ونمدحه ونسبح له .

(٣) الوجود الكامل يأبى الفناء والتناقض . فلا بد أن يجب صفات للوجود الكامل ، فمن كمال الوجود أنه يحب الخير ، فإنه لو أبغضه ناقض وجوده فلم يكن باقيا .

(٤) الوجود الكامل لا بد أن يكون غنيا ثم حميدا ، رحيما ، مفيضا حسب الاستعداد ، رافعا إليه وآخذا بيد من يرتفع إليه ، محبا من اتبع سبله واقتبس من نوره .

(٥) أيضا الوجود الكامل الغني الحميد لا بد أن يفعل ويريد ، ولا فعل إلا بإرادة ، ولا إرادة للفعل إلا أن يحب أمرا ولا يحب أمرا . فتبين أن الوجود الأول لكماله مستلزم للفرق بين الحسن والقبيح ، وإلا

---

[1] سورة آل عمران الآية : ١٨ .

لم يكن فاعلا وأيضا لم يكن كاملا كما قال: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ ﴾[1].

(٦) الوجود الحادث فعل كما هو وجود . فإن كان لا بد للوجود من نهاية إلى قديم ، فكذلك لا بد له من نهاية إلى مريد ، حاكم بالخير والشر . فكما أنه تعالى موجود بذاته فكذلك هو حاكم بذاته ووجوده وصفاته وحبه لصفاته ، وهو حكمه لا ينفك بعضها عن بعض.

(٧) نهاية الوجود إلى القديم ، نفسها مستلزمة لفعله ، فكما هو منتهى الوجود فكذلك ولذلك هو منتهى الخير . أراد الخير فأوجد . وأما الشر فلا بد منه للخير وهو مبسوط في موضعه .

(٨) قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝ ﴾[2]

قيل : لو جعلنا القسط واجبا ومرعيا في فعله تعالى وقعنا في معضلة . فإنه خلق الحيوانات على تفاوت ، إذ خلق أدونها وأنكرها كما خلق أعلاها وأحسنها ، قلنا : أعطى ما أعطى مجانا ولا سبيل عليه للسائل . كما ترى رجلا جوادا يبث الدراهم والدنانير والجواهر على

---

[1] سورة القلم الآية : ٣٥-٣٦ .

[2] سورة السجدة الآية : ٧-٩ .

مساكين من غير حق عليه يتفاوتون فيه ، بل ولا حق لهم . وكل من يجد ما يجد لم يكن ليجده إلا على يد هذا الجواد . فهل لأحدهم أن يسأله لم أعطيتني أقل مما أعطيت غيري ، وقد أعطاه أكثر من كثيرين فيقال له :

(الف) هذا فضلي . وما أخذنا منك شيئا فأنت تطلب ثمنه .

(ب) لو أعطينا كلكم شيئا واحدا ، ما انتفع أحد بنصيبه . ولا كان لشيء ثمن ، ولا موقع ، بل ولا وجود . ومن المحال أن نجعل الملك من غير رعية ، والجواد من غير فقير ، والراكب من غير مركوب ، والشجاع من غير حرب ، والتقوى من غير هوى ، والأسى من غير مرض ، فالمساواة إبطال كل خير .

(ج) بما جعلناك ذا حياة وفكر وإرادة فإن سخطت على عطائي هذا انفض يديك و ادخل في الجمادات فتستريح من السؤال ويستوي عليك العطايا . ولكنك تحب الحياة والفهم . هب إنك تسخط بها وبالوجود ، فلم تسألنا أن نفعل لك شيأ ؟ رد إلينا عطيتى بيدك واخرج من الوجود . فإن لم تستطع فلم نفسك بما أخذت أولا عطيتي وتمتعت بها ، ثم تذمر وتسألنا أمرا شنيعا وتظنه حسنا . فهل عليّ أن أفعل كل ما تسأله .؟

(د) ما من نعمة إلا ومعها ذمة بحسبها ، فمن نال خيرا أكثر من غيره فقد حمل ذمة بحسبها . والخلاص والرقى بحسب وفائه ما حمل وكم من العقلاء إذا أحس بعظيم ذمته تمنى لن يكون أقل نعمة ، وإن

كان في اختياره زهد فيها لكي يخلص من حسابه العسير . فكلكم سواء من أعطى مئة طولب بمئة ، ومن أعطى عشرا طولب بعشر . فلا يبقى من الجمع بعد الفرق إلا صفر . فكلكم فقراء والمعطون سواء ، ولله الحمد في الأولى والآخرة ....

من إفاداته

لو خلق كل شيء على كماله ، آمن الناس بآلهة لكل نوع ، بل ظنوا الطبائع غير مخلوقات . فالنقص دليل العجز ....

بيان أن الحسن والقبيح بأمر الله ومشيئته

وهو لا يريد إلا الحق والقسط ولا يأمر إلا بالعدل

قد زعم من أصحابنا طائفة : أن الحسن والقبيح محولان إلى الشريعة وأمرالله تعالى ، وكل ما يفعل الله تعالى فهو حسن فإن أضل الناس وعذبهم من غير جرم فهذا أيضا حسن. حتى أنه تعالى نعوذ بالله منه — إن كذب أو خدع فليس في شيء من القبح ، وإنما هو الحاكم على كل شيء وكل أمر ، وهو خالق الشرائع فكيف يكون تحت أحكامها .

هذا كلام مخبوط ومخلوط ، أوله حق وآخره باطل . لاشك أن مآل الحق والحسن إليه تعالى ، فكل ما يفعل ويأمر فهو خير ، ولكن القول بأنه إن أضل الناس وعذبهم من غير جرم كان ذلك حسنا قول باطل ، ومنشأ الخبط فرض ما هو محال كما يقال إن الله تعالى قادر على كل شيء فهو قادر على خلق إله مثله .

ويلزم هذه الطائفة أن ينكروا بكونه تعالى عادلا ومحبا للقسط والحق إلا أن يأولوا الألفاظ عن ظواهرها ، وقد فعلوا .

ثم يلزمهم أن ينبذوا معيار صدق الشريعة وتمييز الحق من الباطل ، فإن وجدوا أسوء شيء دانت له أمة مثل أكل الربا ، وقهر الأيتام ، وأكل لحوم الأسارى ، وسائر المنكرات والفواحش ، لم يكن لهم أن ينسبوا بكلمة خلافه وقلوبهم موقنة ببطلان ذلك الدين المكروه . لان أمة دانت له تقول إن الله أمرنا بهذا ، ولم يبق في أيديهم إلا التشبث بالأخبار المثبتة للمعجزات والنبوات ، ولكن هذا الاحتجاج بالمعجزات مع سائر الملل الباطلة هل أكثر مما لنا ؟ وقد صرح القرآن بشناعة هذا الطريق ، فقال : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [1].

ثم يلزمهم أن يكذبوا ببداهة قلوبهم في الأخلاق وبداهة عقولهم

---

(1) سورة الأعراف الآية : ٢٨-٢٩ .

أيضا ، فإن الخالق لعله خدعهم ووهبهم عقولا مضلة ، فهذا سوء الظن بالرب تعالى ، وهو الجهل الأكبر والضلال الأضل .

وإنما دعاهم إلى هذا الرأي الفاسد شدة خلافهم للمعتزلة الذين جعلوا العبد خالقا آخر ، وأوجبوا على الله تعالى حكما وشريعة ، فشد نكير أهل السنة على مخالفيهم وفروا كل الفرار عن مذهبهم حتى بعدوا عن أصل الصدق ومركز الحق .

وقول أهل السنة بأن الله تعالى أرفع من أن يجب عليه حكم فقول حق ، ولكن لا يلزم منه أن يكون فعله خلاف العدل ، أو أن كل ما يفعل فهو العدل . ولا حاجة إلى كل المخالفة للمعتزلة ، بل يرجع الرأيان إلى وسط : وهو أن لا يقال معاذ الله أن آمرا وحاكما غير الله تعالى أوجب عليه شيئا ، ولكنه تعالى كما قال عز من قائل: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾[1] وذاته المقدسة على كمال الحسن والكرم فلا يحب خلافه ، ثم لا يشاء ضد مشيئته ، وقد علمنا أن مشيئته العدل والفضل وبذلك أمرنا حيث قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[2] .... (بياض في الأصل)

من إفاداته

(١) الحسن والقبح يحكم بهما القلب السليم ويؤمن أنهما هكذا

---

[1] سورة الأنعام الآية : ٥٤ .

[2] سورة النحل الآية : ٩٠ .

عند الله ، فليسا إضافيين كما ظن الذين لا يؤمنون بالله ، أو لا يظنون أن الفطرة الإنسانية على صحة الحقيقة ، وبذلك ينهدم مدحنا وذمنا لله تعالى فلا يبقى أساس للدين . ونحن علمنا من ضرورة عقلنا وتعليم القرآن أن الله تعالى جعل لنا ميزانا لمعرفة الحق والباطل ، والحسن والقبيح ، وهدانا بالفطرة إلى الصراط المستقيم وإنه هو على هذا الصراط . ولولا ذلك لما أمكن تخاطبنا ولا الاحتجاج علينا. وأخطأ الأشاعرة والظاهرية وكثير من أهل السنة أن الحسن والقبيح اللذين سماهما الله تعالى لنا ليس حكمهما إلا فيما علينا ، فهما أمران لا يتعديانا ، وهذا باطل ولكنهم اضطروا إلى هذا الرأي لوجهين :

الوجه الأول : أن الله تعالى أعلى وأرفع من أن نحكم على أفعاله بالوجوب ، فإن قلنا إن هذا الأمر حسن لله تعالى أيضا وإن فعل خلاف ذلك كان قبيحا صرنا حاكمين عليه . وهذا لا يلزم أبدا ، فإنا نعلم أنه لن يفعل القبيح وإنما علمنا القبيح بما أنه تعالى هدانا إلى معرفته بكتابه وبما فطرنا عليه ، فلا نحكم عليه بل نؤمن بقضائه وجميل صفاته .

والوجه الثاني : أن الله تعالى لا شك يفعل ما لو فعلناه لكان قبيحا منا ، فلو حكمنا عليه تعالى بما نحكم به علينا لقلنا إنه فاعل القبيح وتعالى شأنه عن ذلك علوا كبيرا . وهذا أيضا لا يلزم فإن العقل لا يحكم على قبح فعل إلا بعد العلم المحيط بنتائجه ومنشئه ، مثلا أن المؤدب يعذب وكذلك الطبيب يسقى المر فلا نحكم بقبح أفعالهما ، لما علمنا أن المنشأ والغاية خير . وكذلك الحاكم العادل يعذب فلا نقول

إنه ظلم منه.

فإذا كان الأمر هكذا فكيف نحكم على ما يفعل الله تعالى بأن ليس تحته حكمة ومصلحة ورحمة ، وقد أيقنا أنه الحكيم ، الرحيم ، العادل ، ولا يحيط بعلمه أحد . وقد زعمت الأشاعرة وأهل الحديث أن لا خير لنا في كثير مما يفعله الله كخلقة من علم أنه يموت كافرا ويخلد في النار ، أو كخلقة الشيطان والأرجاس والسموم والأفاعي والعقارب وغير ذلك ولكن هذا هو دعوى الإحاطة بالعلم . ألا ترى كيف خفي على موسى عليه السلام حكمة فعل صاحبه حتى أنه لم يصبر عن الملامة ولكنه كله كان حكمة وعدلا . لا لأن الله تعالى أمر به أمرا محضا بل لما بين صاحبه الملهم وحينئذ اطمأن به موسى عليه السلام ، فإن كان هذا أمر من له شيء قليل من علم الله فكيف بعلمه المحيط بكل شيء ؟ وبعد أن أخطأوا الحق أخطأوا فهم النصوص كما نذكره .

(٢) لا شك أن الله تعالى لم يزل قادرا عليما رحيما ، فهذه الصفات مناط المدح وألهمنا بحسنها فطرة ، فنمدح به الإنسان ونحكم على حسن الأفعال من جهتها ، فليس حسنها بما أنه تعالى جعلها حسنا بل هي حسنة لكونها من صفات الله تعالى ، وصفاته غير مخلوقة وكذلك حسنها ، نعم علمنا بحسنها مخلوقة ولا شك أن حسنها لذاتها بمعنى أن الحسن غير منفك عنها . فإن سأل ملحد كيف اليقين بهذا اليقين ؟ قلنا إنه ضروري فطري لا يبطل بمجرد شك مفروض . فإنا لا يمكننا أن ننكر حسن القدرة والعلم والرحمة والعدل والحب والسرور والبقاء .

(٣) إن الله تعالى حق واجب لا يتبدل هو نفسه ولا صفاته ولا مشيئته ولا سنته ، فمشيئته حسب صفاته ، فيحب القدرة والعلم والرحمة والعدل . فأعطاناها وأمرنا بها . ولكنه يعطي ويسلب ويمنع حسب إرادته التي لا تخالف صفاته ، فيعطي ما يعطي لكونه قادرا ، حكيما ، عادلا ، عزيزا . فيفعل ما يشاء لا مرد لحكمه ، ولكنه لا يشاء مناقضا لصفاته فإنه ذل وإكراه وتناقض ، تعالى عن كل ذلك علوا كبيرا.

(٤) فهم الأشاعرة من قوله تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝ ﴾[1] أن الله تعالى إن عذب من غير ذنب لم يكن ذلك ظلما ، وليس لأحد أن يقول له تعالى لم تفعل ذلك . وهذا ليس مراد الآية ، وقد قال تعالى: ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ۝ ﴾[2] وقد جاء في صحيح البخاري أن للعباد حقا على الله أن يدخلهم الجنة إن لم يشركوا به [3] ....(بياض في الأصل) .

---

[1] سورة الأنبياء الآية : ٢٣ .

[2] سورة الفرقان الآية : ١٦ .

[3] أورده البخاري في كتاب الجهاد والسير ، باب ٤٦، رقم الحديث: ٢٨٥٦، ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أنه من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا، (والحديث متفق عليه) .

الطريق الرابع

معرفته من جهة النظم وهو يعم الطرق الثلاث

(في نظم الصفات)

بما جاءت الصفات منسوقا بعضها مع بعض في أكثر المواضع ينكشف من التأمل في نظمها ما لا نكاد نفهمه من النظر في آحاد هذه الصفات . مثلا تأمل في قوله تعالى:﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾[2]. فجمع بين هاتين الصفتين لما قد بيناه .... وهذه المقابلة بين الغنى والحمد كانت معلومة للعرب ، فإن الحمد ليس إلا لمن يسدي معروفا إلى غيره ، والمستغني هو الذي لا حاجة له إلى أحد . قال عروة بن الورد :

فذلك إن يلق المنية يلقها حميدا وإن يستغن يوما فأجدر [3].

وجاء بهذا البيت بعد وصفه بالجود والسعي لكسبه المكرمة ، فمعناه: إنه إن مات حمده الناس لكرمه وجوده ، وإن استغنى فليس ذلك بأنه أصاب غنى وبخل به ، ولكنه اقتر فتعفف عن المسئلة واعتزل مع فقره ، فهـــذا جدير به . وبذلك وصف النبي ﷺ الأنصار فقال : "يقلون عند الطمع ويكثرون عند الفزع[4]. وإلى ذلك الإشارة في قوله

---

[1] سورة الحج الآية : ٦٤ .

[2] سورة الكهف الآية : ٥٨ .

[3] ديوان عروة بن الورد، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، ص: ٥٢ .

[4] كنز العمال، رقم الحديث: ٣٧٩٥١، المجلد: ١٤، ص: ٦٦، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١هـ

تعالى: ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾[1]........(بياض في الأصل) .

من باب نظم الصفات

(الغني الحميد)

إنا لنعلم علما ليس بالظن ويوافقه الوحي الســماوي ، أن الله تعالى غني عن العالمين فلا احتياج له إليهم ، فإنه الكامل بنفسه ، فإن فنى جميع العالم لم ينقص من كماله شيء ، فهو الكبير المتعال أزلا وأبــدا ومع ذلك لا بد من جلاء باطل

فزعموا أن الاستغناء ربما يبعد عن الحمد . فإن الغني وإن لم يكن محتاجا إلى غيره لكنه لا يحمد حتى يحسن إلى غيره ، فكان صفة المحمودية تحتاج إلى سواه ، ولا يكون الله حميدا حتى يخلق الخلق ويــنعم علــيهم فيحمدوه ، وهذا ظن باطل . لأن الصفة الذاتية التي بها يحمد الموصوف أجل وأرفع من المكتسب ، والحمد المكتسب كالنتيجة له . وإنما تظهر الصفات بالأفعال كأفعال الشجاعة والسخاوة . فالمحاسن الذاتية ثابتة لله تعالى ، وجميع صفاته كالخلق ، والعدل ، والرحم ، والرأفة ، والعلــم ، والحكمة أقدم وأثبت من آثاره ، فإن علة الشيء متقدمة عليه .

فكما أن الله تعالى غني عن الخلق فكذلك حميد قبل الخلق ، ونبه على هذا الأمر كثيرا في القرآن ، ومنها قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ

[1] سورة البقرة الآية : ٢٧٣ .

﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [1] فعلمنا أن بعد فناء العلم يبقى جلاله وإكرامه ، أي غناه وحمده ، وإلى هذا يشير وصفه كثيرا بالغني الحميد . والكلمتان عبارة عن أصل معنى واحد فإن الغني الذي يحتاج إلى غيره في الحمد ليس بغني ، والحميد الذي فيه احتياج لا يكون حميدا في ذاته مع هذا النقص ....

الخلق من آثار رحمته

من غير احتياج ولا وجوب بل بإرادة

فلما كان الله تعالى ذا الحمد والحسن ، اقتضت صفته وتوجهت إرادته أن ينعم فخلق الخلق وأنعم عليهم بنعم لا تحصى ، فليس للخلق علة إرادية غير الرحمة كما قال الرومي :

من نه كردم خلق تاسودى كنم بلكه تابر بندكان جودى كنم

وهذا قول في غاية الحسن والحكمة ومطابق بالعقل والوحي ، فلو خلق الخلق لغير ذلك كان عبثا ، فإنه تعالى لا يحتاج إلى شيء ، والخلق قبل وجوده معدوم لا اقتضاء له ، وصفة القوة لا يلزمها الخلق وإلا لكان صدور الخلق حسب الوجوب ومن غير الإرادة من البارئ تعالى ، وبطل كونه خالقا . وهذا أمر خفي على البراهمة فضلوا مع ضلالات أخر في صفات الرب .

---

[1] سورة الرحمن الآية : ٢٦-٢٧ .

فاعتصم بهذا الحبل واجعل الرحمة أصل أوامر الله ومصيرها .

(وكذلك الشرع)

كما أن الخلق آثار رحمته فكذلك الشريعة ، فإنها ليست إلا لصلاح الخلق . والشرائع في غير الإنس والجن إلهام الطبيعة وتصرف ملائكة الرب ، فيجري أمر الرحمة حسب ذلك ، وأما الثقلان فاعطاهم الله تعالى تمييزا وابتلاهم لكي يستحقوا منزلة الحمد ، فإنها لا تكون بغير إعمال العقل والإرادة . فإنك تشم الورد وتحمد الخالق وكذلك تسبح لله إذا ترى عجائب القدرة ، ولكنك تحمد الإنسان على ما فعل ، لما تعلم أنه هو المريد لما يفعل ، وهذا أعظم المنازل وأكبر النعم عليه ، كأنه تعالى أعطاه خلعة من رداء حمده فمن شرفه بهذا الخلعة حمد الله والملائكة والناس ، ولكن من حمد نفسه وفخر به فهو منازع للرب تعالى ، بل المحمود يتضع ويخضع ويعترف بمنة الله عليه ، ولذلك وجب الاعتراف بالعبودية والمنة على الإنس والجن أكثر من سائر المخلوق ، فإنهما على شفا كفر وشرك إن ظنوا أنهم محمودون وقادرون بالاستقلال.

ثم الإنسان محمود مجازا لفقره ، إلى هذا أشار قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [1] فإنه تعالى أعطاكم إرادة. وعقلا وألهمكم سبيل الفجور والتقوى .

---

[1] سورة فاطر الآية : ١٥ .

وفي القرآن والكتب المقدسة آيات كثيرة تدل علـــى أن مــــدار الشريعة على الرحمة والمؤاساة ، وهي أصل الخلق ولذلك :

١ــ علمنا اسمه الله والرحمن والرحيم أولا .

٢ــ وجعل سورة الحمد أول كتابه .

٣ــ واتخذ أكثر أسمائه من هذا الأصل كالرؤوف ، والـــودود ، والحنان ، والمنان ، والمؤمن ، والوكيل ، والصمد ، والمولى ، والنصير ،

والعلم بهذا الأصل ينفعنا من وجوه كثيرة ، ونذكر مـــا هـــو كالأصل والمركز ، وللتفصيل نحولك إلى فكرك...(بياض في الأصل).

من إفـــاداته

إن الله سبحانه وتعالى مع استغنائه حميد ، وكيف يكون علـــى كمال المحمدة من احتاج وافتقر ؟ فلا يكون فعله جلبا لنفعه ولا يكون غير فاعل أيضا ، فإن المعطل أدون من فاعل لنفعه ، فهو سبحانه وتعالى يفعل لمحض رأفته فكان غنيا وحميدا ، حميدا لغنائه وكمالـــه ، وحميـــدا لرأفته ، فخلق الخلق وهذا أول نعمه وأكملها ، ثم أنعم عليهم بنعمــه الظاهرة والباطنة ، ولذلك وجب عليهم أن يحمدوه ويشكروه .

والمنعم المفضال الرحيم الذي أنعم أولا ، كيف لايزيد نعمه بعد الشكر ، ولذلك قال: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[1] فإنه الحق

---

[1] سورة إبراهيم الآية : ٧ .

ويـــحكم بالحق ولذلك قال: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾[١]. وقال: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[٢]. ولذلك أتبع قوله: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[٣] قوله: ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[٤]. فهذا من الحق والقسط الذي يفرق بين الحق والباطل ، ويوصل المثل بالمثل، فكما أن الشكر يجلب المزيد ، فكذلك الكفر يسلب العتيد ، ولو لا نزوع المثل إلى المثل لما أحب الله المحسن ، ولما اختار الصالح الصلاح ، فزيادة النعم على الشاكر من الأمر الحق الواجب ، وكذلك ضده وهو سخطه بالكفور .

وأول الشكر معرفة قدر النعمة ، ومن معرفة القدر وضعها في محلها واستعمالها فيما خلق لأجلها ، فإن تعطيلها إضاعتها ، و وضعها في ضد مقصدها أكبر إضاعة وأشد كفرا . ومن عرف قدر النعم وترتيبها من الوجود ، والحياة ، والعلم والتمييز بين الأضداد ، والرغبة في الخير ، علم أن أكبرها وأجلها هي الحكمة كما قال تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٥]

وهذه النعمة ليست مما آتاه الله تعالى أولا ، بل إنه تعالى يؤتيه من

---

[١] سورة التين الآية : ٨ .

[٢] سورة القلم الآية : ٣٥-٣٦ .

[٣] سورة إبراهيم الآية : ٧ .

[٤] سورة إبراهيم الآية : ٧ .

[٥] سورة البقرة الآية : ٢٦٩ .

يشاء ، وذلك بعد الاستحقاق بالشكر ، واستعمال ما أنعم به من الهدى الفطري كما قال: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[1] فهدى الإنسان جميعا وأقامه على سبيل يبلغه إلى الكمال ، فمنهم من استعمل هذا الهدى فكان شاكرا وازداد هدى ، كما قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى ﴾[2]. ومنهم من نبذ هذه النعمة أو أساء العمل بها ، فضل عن السبيل وغوى ، فهلك كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[3]. فوقع عليهم مثل ما استحبوه ونتيجة ما كسبوه ، فإن المثل لا يخلف المثل ، ولكن الله تعالى يخرج الضد من الضد أيضا ، وهذا لقدرته في الخلق لمصلحة وحكمة ، ولذلك ترى أنه تعالى مع لزوم المثل بالمثل جعل الهدى جمة الأبواب وجعل الغي رمة الأسباب ، فإن الرحمة أوسع والحق أبقى ، وإنما جاء الباطل كالظل والخادم للحق ، ولو لا ذلك لم يكن .

قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[4]، ومن ههنا اسمه الله والرحمن ، كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى

---

[1] سورة الإنسان الآية : ٣ .

[2] سورة محمد الآية : ١٧ .

[3] سورة فصلت الآية : ١٧ .

[4] سورة الأعراف الآية : ١٥٦ .

[5] سورة الإسراء الآية : ١١٠ .

﴿ ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[1]فإن الحق هو الذي وجب وجوده، إما قديما: فهو الواحد القهار، وإما حديثا: فما أراد من الرحمة ، فخلق وأنعم. فالخلق ذو وجهين: مشرق ومظلم، وخير وشر .

أما الأول : فمن جهة نسبته إلى ربه ، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[2]، فلايكون شرا من هذه الجهة . وأما الثاني : فمن جهة شر ، نسبته إلى نفسه ، فإنه غير الحق . فغيريته شر ، فوجب الفرار منه ، فأمرنا بالاستعاذة مما خلق عموما فقال: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾[3]، ثم بعد ذلك فصل جهات الظلمة في الخلق . والمقصود أن الرحمة لابد من وجودها وهي تسع كل شيء ، وهي ما يجب في الوجود والوجود من دونه باطل . فمن الرحمة أنه تعالى جعل الرحمة غاية الخلق وبدايته ، فأنعم عليهم ويتمها ..... وأكبر نعمها الحكمة .... وهي الطهارة من رجس الشهوات ، والتزكية من أدناس النفس الأمارة الظالمة الجاهلة . ولذلك قد أرسل الله الرسل ، فربى الناس ورفعهم درجة فدرجة ، حتى أكملهم بخاتم الرسل محمد النبي الأمي الآخذ من العلم اللدني المتمم الكمال الإنسى كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[4]، فأتم تعليم الحكمة بهذا النبي وسماه أحمد

---

[1] سورة الأنبياء الآية : ١٨ .

[2] سورة السجدة الآية : ٧ .

[3] سورة الفلق الآية : ١-٢ .

[4] سورة الجمعة الآية : ٢ .

ومحمد، فإن من أعطي أعلى النعم حمد الرب غاية الحمد فصار محمدا لوجوه .... (بياض في الأصل) .

تذكـــرة

١ـــ نؤمن بالله بإنه يحبنا ، ونعبـــده بالإطاعـــة في المؤاســـاة ، ونشكره ونحمده بكمال المحبة ، فلا نشركه به أحدا ، فإنه ظلم عظيم .

٢ـــ إن الله تعالى جعل الشريعة رحمة للعالمين ، وجعل فيها حياتهم ورقيهم ، وهي أفضل النعم وأحسن الأرزق ، وفي القرآن آيات كثيرة يخبرنا عن هذا ، فمنها قوله تعالى في سورة هود : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ (٦٣) ﴾[١]

ومرارا في هذه السورة سمى الشريعة رحمة .

وأما تسميتها بالرزق ، فقوله تعالى في سورة هود : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ (٨٨) ﴾[٢]

٣ـــ الأوامر الإلهية تجري على كلية مبنية على صفاته تعالى مثلا

---

[١] سورة هود الآية : ٦٣ .

[٢] سورة هود الآية : ٨٨ .

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾[1]، عبارة عن فيضه العام حسب استعدادات الخلق كما قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾[1] وقال مثل ذلك: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[2] فهذا صريح فيما ذكرنا .

٤ــ نأول الشرائع إلى المؤاساة حتى القتال والعقوبات .

تذكــرة

لو أهلك الله تعالى جميع خلقه لم يكن خلاف صفة العدل فإنـــه المالك ولكنه لو عذب عباده من غير ذنب كان خلاف رحمتـــه وهـــو الرحيم .

ولو عامل بالبر والفاسق سواء ، كان خلاف حكمة العدل وهو الحاكم بالحق والصدق ، ولذلك قال: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[3] وقال: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾[4]. أي أكثر صدقا وصوابا في حكمه . وقال: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟

---

[1] سورة محمد الآية : ١٧ .

[1] سورة الشورى الآية : ٢٠ .

[2] سورة الإسراء الآية : ٢٠ .

[3] سورة القلم الآية : ٣٥-٣٦ .

[4] سورة التين الآية : ٨ .

ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1] ....

من إفاداته

أمر الله عباده بالقول ، كما قال: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[2] وهــذا كثير . وأيضا أمرهم بالفطرة ، كما قال: ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾[3]. وقال: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[4] وقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[5]

فمنهم من أطاع الله ومنهم من عصاه ، كما قال: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾[6] وقال: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[7]. فالعصيان لما أمر الله ، إما كان باختيارنا والله تعالى جعل لنا اختيارا ، فهذا يتصور . وإما كان بقدرتنا وغلبنا على إبطال قدرة الله فلا يتصور . وإما كان بأن الله أمرنا بأمر قولا ، وحملنا على عصيانه عملا ، فلا يتصور لشناعته البادية ....

---

(1) سورة الجاثية الآية : ٢١ .
(2) سورة الإسراء الآية : ٢٣ .
(3) سورة البقرة الآية : ٢٢٢ .
(4) سورة طه الآية : ٥٠ .
(5) سورة الأعلى الآية : ٢-٣ .
(6) سورة عبس الآية : ٢٣ .
(7) سورة فصلت الآية : ١٧

الرحمة والنعمة والعدل

من كمال رحمة الله تعالى أنه أنعم بالعلم والإرادة والفهم والتمييز والاختيار ، ليقربوه عبودية وطاعة ، وبهذه النعم جعل أهل العقول أحرارا ، ولا تناقض في أحكامه . فلما جعل العقلاء أحرارا لم يحكم عليهم إلا بعد المعاهدة وجعل في فطرتهم ما حكم على حسن هذا العهد . ثم لا يقضي عليهم إلا بعد شهادة الشهداء والصحف والموازين ، وقد كان في علمه تعالى كفاية لكنه يتم الحجة عليهم لكيلا يتهموه بالظلم ولكي يعترفوا بذنوبهم .

وكذلك لا يعذبهم في الدنيا إلا بعد إتمام الحجة ، إما من فطرتهم على الفحشاء والمنكر ، وإما بعد إرسال الرسل ودعاة الخير ، وقد بين هذه الأمور كلها في القرآن الحكيم . ذكر في سورة الأعراف عذاب الأمم المكذبة فقال في قوم نوح عليه السلام : ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴾[1] أي كانوا لا يهتدون ، واتضح أنهم كالعميان فلا رجاء فيهم ، فبعد ذلك أهلكهم . وقال في ذكر قوم هود عليه السلام : ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾[2]. أي لم يكونوا أن يؤمنوا ، ودلت عليه أحوالهم . وهكذا جاء مرارا في سورة الشعراء .... كما قال في قوم نوح : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ

---

(1) سورة الأعراف الآية : ٦٤ .

(2) سورة الأعراف الآية : ٧٢ .

ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾[1] وقال في قوم عاد: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾[2]. وقال في قوم ثمود: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[3]. وقال في قوم لوط عليه السلام: ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ ﴾[4]. وقال في قوم شعيب عليه السلام : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[5]......... (بياض في الأصل)

من إفاداته

... قد أهلك الله الكافرين وعذبهم في الدنيا بعد إتمام الحجة ، وليس لأحد أن يقول إنه ظلم لاحتمال توبتهم ، فإنهم لم يكونوا بتائبين أبدا ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[6] فإن السيئات إذا اقترفها الإنسان تعمدا وشرح بها صدرا ، قوي

---

[1] سورة الشعراء الآية : ١٢٠-١٢١ .

[2] سورة الشعراء الآية : ١٣٩ .

[3] سورة الشعراء الآية : ١٥٧-١٥٨ .

[4] سورة الشعراء الآية : ١٧٢-١٧٤ .

[5] سورة الشعراء الآية : ١٨٩-١٩٠ .

[6] سورة يونس الآية : ١٣ .

سلطانها وأحاطت بصاحبها وسدت عليه سبيل التوبة فلا يتوب ولا يغفر له . فليس أن الله تعالى حجبه عن الهداية بل هو الذي اختار لنفسه الشقاوة فحرم الهداية . والله تعالى لا يكره أحدا على الضلالة إلا أن يكون هو قد أكره نفسه عليها ، كالذي ألقى نفسه من صعد فلا يمكنه بعد السقوط وطوله أن يرجع إلى العلو أو يقف في البين ، فهو الذي بدل اختياره جبرا ، وعن هؤلاء قد أخبر الله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾[1]. وأيضا: ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2]. وكما قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[3]. وأيضا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾[4]. وأيضا: إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[5]. وأيضا: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ﴾[6]. وفي هؤلاء قال المسيح عليه السلام : " إن مرور جمل من ثقب إبرة لأيسر من أن يدخل غني في ملكوت الله [7].

وجملة القول إن الله تعالى يوقع نتائج الأعمال السيئة فيسد

[1] سورة البقرة الآية : ٧.
[2] سورة النساء الآية : ١٥٥.
[3] سورة البقرة الآية : ٨١ .
[4] سورة النساء الآية : ١٣٧.
[5] سورة الزمر الآية : ٣ .
[6] سورة الأعراف الآية : ١٤ .
[7] إنجيل متى ١٩ : ٢٤ ، ومرقس ١٠ : ٢٥ و لوقا ١٨: ٢٥ .

أبواب الهداية ، فإن الهداية أكبر النعم وقد أعطاها العباد ، ثم وجهها إليهم من طرق كثيرة ، ثم لا يزال يدعوهم حتى إذا. ..[1]ونظائرها أكثر من أن تحصى .

وجماع هذا البحث أن الله تعالى جعل رحمته عامة وعطاياه غير محدود ، كما قال: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[2]وأيضا قال: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[3]. وجعل رحمته لازمة وقاعدة وأساسا كما قال: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾[4]. فرحمته قبل كل شيء ، ثم إذا عمل العبد توجهت إليه الرحمة مرة ثانية أو النقمة أول مرة حسب أعماله . فالرحمة السابقة لا مزاحم معها ، وأما بعد الأعمال فتزاحمها النقمة لضرورة العدل والقسط ، فإن الله تعالى هو الحق ولذلك يبطل الباطل ويحق الحق ولا يحكم إلا بالقسط ، ويلزم ذلك الفرق بين الحسن والقبيح ، كما قال: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[5]. ولذلك يذكر النقم نتيجة لقوله وحكمه وسنته ، فمن جلب على نفسه النقمة فليس ذلك إلا لما حقت عليه كلمته ونفذ فيه قضاؤه كما قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا

---

(1) بياض في الأصل .
(2) سورة الأعراف الآية : ١٥٦ .
(3) سورة الإسراء الآية : ٢٠ .
(4) سورة الأنعام الآية : ٥٤ .
(5) سورة القلم الآية : ٣٥-٣٦ .

يُؤْمِنُونَ ﴾[1]. وأيضا قال: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2]. وأيضا قال: ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾[3]. وأيضا قال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾[4]. وأيضا قال: ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾[5]..........

الرحمة والغضب

زعموا أن الرحم على الآثمين مثل الرحم على المرضى والضعفاء فإنهم لا يعلمون وبهذا يبطلون الغضب ، ولكن نعلم من فطرتنا أننا نغضب على من يبطل العدل ويكذب بالحق ويهتك الحرمات ويهضم الأرامل واليتامي. ونعلم من فطرتنا أن الضعف والعجز والتضرع مما يهيج الرحمة ، والكبرياء والتغشم والطغيان يهيج الغضب ، فكيف تثبت الرحمة وتنفي النقمة ؟ .

---

(1) سورة يونس الآية : ٩٦ .
(2) سورة يونس الآية : ٣٣ .
(3) سورة غافر الآية : ٥-٦ .
(4) سورة النحل الآية : ٣٦ .
(5) سورة ص الآية : ١٤.

فإن قلت إن الله تعالى اسمه الرحمن لا الغضبان ، قلت لا يـ.ل ذلك على نفي الغضب بالكلية ، وإنما ذلك بأن الرحمة هي الأصل ، فخلق الغضب لمقاومة الغضب رحمة كما قال: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[1]

وكذلك نرى في فطرتنا أننا نغضب لدفع السوء عـــن المظلـــوم رحمة ومؤاساة به كما غضب موسى عليه السلام (ووكـــز القبطـــي) وهذا وجه واحد للغضب وهو إنفاذ الرحمة وحفظها . والوجه الثاني أن الغضب من الغيرة ، وهي لحفظ حقيقة العزة ، والنقمة على المـــشركين منها ونرى ذلك في فطرتنا.

وأما كون ذلك مما ينبغي ، فنقول :

إن حسن الشيء والرغبة إليه يستلزم شناعة خلافه والنفرة عنه ، فإن كان الشكر حسنا كان الكفر سيئا ، فمن ينفي الغضب عنه تعالى ينفي الرحمة أيضا ، وهم المعطلون ، المبطلون .... (بياض في الأصل) .

باب الشبهة على العدل والرحمة والقدرة والعلم

(معضلة قديمة)

قال تعالى: ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ أَحْسَنَ

---

[1] سورة الأعراف الآية : ١٥٦ .

[2] سورة الأنعام الآية : ١٠٢ .

كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[1] فنسب كل خلق إلى نفسه ، ثم صرح بأن كل خلق على أحسن خلقة ، ولكنك ترى نقائص في كل نوع من الخلق ، مثلا لا تعدم في الإنسان أعمى ولا أصم ولا أخرس ولا أعرج ولا سائر الناقصى الخلقة ، ثم ترى فيهم سيء الخلق ، دني الهمة بطي الفهم وأمثال ذلك ، بل قد صرح القرآن بغير واحدة من نقائصه الخلقية مثلا: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[2]. ومثلا : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ ﴾[3]وغير ذلك . فدل على ثلاثة أمور :.

(الف) لا خالق إلا هو . (ب) ليس في خلقه نقص . (ج) والنقائص موجودة .

فسد أبواب الضلال وترك المعضلة للتفكر ، فلم يترك إلا حلا واحدا وهو أن الشر أيضا من الخير .

وأهل الفكر لما رأوا في هذا الكون اختلاط الخير والشر ، والنور والظلمة ، والمسرة والحزن ، واللذة والألم ، والصلاح والفساد ، والرحمة والظلم ، وهكذا امتزاج الأضداد في كل أمر، وقد آمنوا بأن للخلق ربا وخالقا ، أشكل عليهم ذلك فسعوا لحله إلى كل جانب ، ولنذكر معظم مذاهبهم في ذلك ....

(الف) رأى المجوس أن خالق الخير غير خالق الشر ، وهما ضدان

---

[1] سورة السجدة الآية : ٧ .

[2] سورة الأنبياء الآية : ٣٧ .

[3] سورة المعارج الآية : ١٩-٢٠-٢١ .

والكون معركة الأضداد .

(ب) رأى البراهمة أن كل شر فهو نتيجة أفعال من يريد ويحس ، وهم يرجعون بعد الموت ليذوقوا ما فعلوا ، والخالق بريء عما فعلوا . والموت والحياة ورطتان ، فالحكيم يسعى أن يخلص نفسه عنهما. والدهر مع عدم نهايته في الأول لم يكف لذلك ، فأشكل عليهم الأمر فنسبوا إلى تقدير قاهر .

(ج) ادعى المرتاضون من الهنود أن الكون وهم وخيال ، والموجود والحد وهوأنا ، وهو كل شيء .

(د) بنى بده مذهبه على عقيدة نتائج الأعمال وشدد في ذلك حتى ترك أتباعه إيمانا بالإله وقد أخذوا عن (ج) أن أنا هو الموجود ؛ ولكنه سقط في ورطة الحياة والموت فأهم شيء له إخلاصه عنها ، وليس ذلك إلا التجريد التام عن حب الحياة ولذاتها ، لكي لا يرجع إلى هذه الحياة .

(ه) ذهب طائفة من هؤلاء إلى الإنكار بالرب ، فإنهم قد وجدوا الحياة مصيبة وقد اعتقدوا بأن النفس لا بد أن ترجع ، فبالغو في إماتة كل شهوة ، لكيلا يرجعوا وتمنوا أن يصيروا إلها . وإذ لم يقدروا على تقريب آرائهم من العامة تركوهم في ضلال قانعين بوصولهم إلى المعرفة في تقلبات وجودهم في أدوار لا تحصى .

(و) ذهب أفلاطون إلى أن الرب تعالى إنما علم الأشياء بعلم أزلي ، فكلها قد وجدت ثم تتابعت في الخلق حسب علمه القديم ، وليس في علمه لكل نوع إلا أصل واحد كلي على غاية الحسن

والكمال ، وأما النقائص وكل شر ينتج منها فلقصور الجزئيـــات عـــن ذلك الأصل ....(بياض في الأصل)

من إفـــاداته

تقرير الشبهة العامة لجميع المذاهب : قدرة الله غير محـــدودة ، الآلام والمآثم موجودة ، وأن الله رحيم ورحمته وسعت كل شيء..

الأجوبة ١- عالم الأمر واجب وخارج عـــن القـــدرة ، مـــثلا النقيضان لا يجتمعان ، ومجموع اثنين مع اثنين أربعة ، ولا يسلب عـــن الشيء نفسه إلا ويهلك ....

٢ـــ وما كان خيره أكثر من شره أقرب إلى الوجود .

٣ـــ الخلق من صفات قديمة لا يسلب من الله تعالى . إله غـــير خالق كإله غير عـــالم ، أو كإله غير مريد ، أو كإله غير قادر ، أو كإله غير إله .

٤ـــ وما كان أقرب إلى الوجود .... لا بد مخلوق . وتفرع الخير إلى الله تعالى كتفرع الشر إليه، ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾[1]. ولكن الله خير لا يحب الشر فهو الرحيم المحض ، ولكن خيرات الشيء غلبت على أشراره فجلبت صفة الخلق إليه . ومع ذلك خالقه في هذا الخلق رحيم وهو معطى غير محظور ....

---

[1] سورة الإسراء الآية : ٢٠ .

مسئلة وجود الشر في العالم

أي وجود المصائب والمعاصي

اشتبه على الناس من المسلمين وغيرهم صفة العدل ، لما رأوا المصائب والمعاصي ، فسلكوا مسالك شتى :

١ــ فمنهم من نسب الشرور إلى غيره تعالى .

٢ــ ومنهم من حول كل شيء إلى قدره تعالى بمعنى أن الحكم بكون الشيء خيرا وشرا في الحقيقة يصح بعد إحاطة العلم بغايه ذلك الشيء . فإن رب شر في بادئ الرأي نحكم بكونه خيرا بعد العلم بما ينتج منه والله تعالى هو العالم بكل ما قدر من الأمور والآثار ، ونحن مأمورون بما أمرنا به وهدانا له ، فإنه قدر كل شيء وجعل له حسابا ونتيجة . فكذلك جعل فطرتنا على قدر وأمرنا بما قدر. فنحن مسئولون بما قدر فينا وهو تعالى ليس بمسئول ، فإنه لم يعطنا تمام العلم بل بقدر ما نحتاج إليه ، والسؤال على طريق الإنكار إنما يصح من الذي له علم الشيء . ولذلك لم يصح السؤال الإنكاري من موسى عليه السلام فإنه كان متعلما و لم يطلع على ما وراء الظاهر ، ولذلك زجر الله نوحا عليه السلام حيث قال له : ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ ﴾[1] فإن نوحا عليه السلام سأل ربه إشارة حيث جاء قبل ذلك: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ......

[1] سورة هود الآية : ٤٦ .

إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ [1] أي أعظك لكيلا يسد عليك باب العلم ، فإن السؤال الإنكاري ادعاء بالعلم، والدعوى تسد باب التعليم، والله اعلم .

٣ــ ومنهم من نسب كل شيء إلى إرادة الله تعالى ، واعتقد أن الخير ما هو المراد ، ومراده هو الخير عنده وهوالحق ، فما أراد الله لا بد أن يكون خيرا بالحقيقة ، وإلا لزم كونه تعالى غير حق ، فما شـــاء الله تعالى فعل ، ولا يشاء إلا ما هو خير في نفس الأمر .

٤ــ ومنهم من نسب كل ذلك إلى ملكه قائلا بأنه منـــزه عن كل سوء ، وجوزوا التصرف المطلق للخالق المالك .

٥ــ ومن الطوائف وبعض من المسلمين جعل التناسخ مخرجا وكل هولاء ينـــزهون الرب تعالى عن الظلم والسوء ...... (بياض في الأصل)

من إفـــاداته

مثل في المصائب

كنت اتفكر في أن الله تعالى ابتلى أولياءه بالمصائب ، فتـــبين لي أنه لو كان سبيل إلى النجاة بدون المصائب لجنبها الله عـــن أوليائـــه ،

---

[1] سورة هود الآية : ٤٥-٤٦ .

فابتلى نوحا وأيوب ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى وإبراهيم ومحمداً عليهم الصلوات

فلاح لي مثل وذلك أن هذه الحياة الدنيا مثل جزيرة ذات أشجار وأزهار وملاعب ، ووقعت نار في جانب منها والريح تهب والنار تسرع وتحيط حتى لا ينجو منها أحد ، وإذا بسفينة والبحر متلاطم ، ويـــدعو الرب أهل الجزيرة إلى السفينة . فمنهم من خاف السفينة وفـــر منـــها وأسخط الرب بسيئاته فتركهم الرب ، ومنهم من ألقى نفسه في السفينة طوعا ، ومنهم من رحم عليه الرب بحسناته فألقاه في السفينة كرهـــا ، ومنهم من ألقاه الملائكة في السفينة ولكنه لم يصبر وأساء الظن بها فألقى نفسه في البحر . فأفلح من صبر وهلك من جزع ....

الهداية والضلالة من الله تعالى

إنما أفردت هذه المسئلة مع كونها جزءا من باب صفات الله لمـــا صعب على العامة فهمها .

فاعلم أن الهداية والضلالة أصلهما مفطورة لما أودعنا الله الحواس والمشاعر والتمييز ، وكذلك الرغبات وضدها ، إن لم تكبحن خـــرجن عن مدارهن وهي الضلالة .

ثم بالاستعمال الصحيح والترويض تنمو وتزيد الهداية والضلالة كلتاهما ، وذلك مثل نمو القوى الظاهرة والأجـــسام . ثم اعلـــم أن الله تعالى هو الذي جعل القوى تنمو وتنشأ كالبذر والنبات والشجر مـــن

حلو ومر وخير وشر ....

معترك الاختلاف في أنه تعالى هل هدى خلقا وأضل خلقا في الابتداء ؟ أم هدى في الابتداء كلهم ، ثم أضل من أعرض عن هداه ، وزاد الهداية لمن تقبل الهداية الأولى ؟ أم لم يضلل أحدا بل جاءت الضلالة من ترك الهداية ، فمن ترك الهداية الأولى وقع في الضلالة باختياره ؟ وإنما نسبت الضلالة إلى الله مجازا، أو من قبل أن هذه النتيجة إنما كانت من سنته تعالى بما ربط الآثار بعلاقها فنسبت إليه تعالى .

فالشق الثاني والثالث لا اختلاف بينهما كبيرا ، ولكن بين هذين والأول اختلافا عظيما . فالعقل يحكم بادئ الرأي بأن الله تعالى لو أضل بعض خلقه من الابتداء من غير ذنب منهم ، ثم عذبهم كان جورا وسوء ظن بالرب تعالى . وأما النقل ، فالقرآن موافق بالعقل ولو أخذوا بالقرآن لم يذهبوا إلى خلاف هذه العقيدة ، ولكن أصحابنا أهل السنة مختلفون فيها ....

تذكرة

هدى الله الناس أجمعين بهداية عامة

إن الله تعالى جعل الهداية عامة فمن تقبلها زاده الله هدى ،

ومن أعرض عنها زاده عمى لزوما . وهذا الإعراض فعل المرء وتركه في قدرته حتى يتعوده ، فحينئذ يصير الترك صعبا ويفسد قلبه مرضا .

والدليل على أن ترك الإعراض في قدرته وقبول الهداية الفطرية الأولية في اختياره قوله تعالى : ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (المائدة:١٠٨، التوبة: ٢٤، ٨٠ ، الصف: ٥). أي بالهداية التالية للطاعة ، أي ما دام على فسقه لا يأتيه الهدي المترتب على الاهتداء، فإنا نعلم عقلا ونقلا أن الفاسقين يتوبون والكفار يرجعون .

وقال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾[1] فالتلقي كان باختياره ، فتاب آدم إلى الله فتاب الله عليه . وما من آدمي إلا ويلقى إليه كلمة التوبة بعد الذنب ، فإن شاء تلقاها وإن شاء أعرض عنها . وقال تعالى في سورة يونس: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[2].وأيضا فيها: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[3]

تذكرة

قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا

---

[1] سورة البقرة الآية : ٣٧ .
[2] سورة يونس الآية : ١٠٠ .
[3] سورة يونس الآية : ٣٣ .

تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾[1] تمسك الـــكافرون بأن ما هو واقع لا بد أن يكـــون بمشيئة الله ، فأجابهم بثـــلاثة طرق:

الأول : إن عذاب المكذبين من الوقائع .

والثاني : إنكم تمسكون بالظن والتخريص في ما هـــو ظـــاهر صريح.

والثالث : إن من الوقائع اختلافكم في الهداية والضلالة ، فلـــو أثبتت المشيئة رضاه ، كان الاستدلال بالمشيئة جمعا بين النقيضين .

والحق أن الله تعالى لا يكره ولا يشاء الإكراه ، فهداكم ولكنـــه لم يكرهكم على قبوله ....

من إفـــاداته

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾[2]. من الحجج ما تجعل الغيب مشهودا أو تنفي الريب ، ولكن الله تعالى يعطيها لمن استحقها كما قال: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ ﴿٨٣﴾ ﴾[3].

---

[1] سورة الأنعام الآية : ١٤٨-١٤٩ .
[2] سورة الأنعام الآية : ١٤٩ .
[3] سورة الأنعام الآية : ٨٣ .

فضلالة الناس ليست بأن الله تعالى لم يقدر على هداية الخلق إنما هي من أنه تعالى بعد إعطاء الهداية الأولى زادها وأتمها لمن اهتدى بها، فلم يشإ الله أن يتم الهـــداية لكل الناس ولكن للشاكرين كما قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَنٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

وهدى يـــطلق على مجرد فعل الهداية ، وعلى إتمامه . وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾[2]جاء في المعنى الثاني ، أي الذين رسخوا في الكفر وبلغوا نهايته لا ينفعهم الإنذار . وأيضا يمكن تأويله إلى عدم النفع متى ماداموا في الكفر.

من إفـــاداته

الهداية والضلالة من الله تعالى ولكن تتفرع على فعل العبد . ومما يهدي إلى ذلك التأويل من آيات القرآن كثير فمن ذلك: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾[3]وأيضا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾[4]وهكذا قال إشارة: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا

---

[1] سورة محمد الآية : ١٧ .
[2] سورة البقرة الآية : ٦ .
[3] سورة الصف الآية : ٥ .
[4] سورة النحل الآية : ١٠٤ .

نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[1] أي من يكفر بالآيات الفطرية لا بد أن يكذب بالآيات التي أنزلت مع الرسل ، فيأخذهم الله على الأول ويهلكهم على الثاني. وهكذا جاء في أول سورة البقرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾[2] وفي ذلك آيات كثيرة ....

الشبهة العامة

في الهداية والإضلال

إن الله تعالى إن كان يحب الرحمة والهداية وهو القادر المطلق ، فلم لا هدى الناس جميعا ؟ وكيف يغلب الشيطان ؟ والجواب : إن الله تعالى جعل رحمته عامة ، فهدى الخلق جميعا وأودعهم السمع والبصر والفؤاد ، وملأ السماء والأرض بآياته الدالة على سبيل الفوز والسعادة ، وبعد ذلك جعلهم مكلفين . ولذلك رفع القلم عن الناسي والصبي ، و لم

---

[1] سورة الأنفال الآية : ٥٢-٥٥ .

[2] سورة البقرة الآية : ٦-٧.

يجعل الحرج على المريض والمكره . وبعد التكليف من شكره على نعمة الهداية وانتفع بها زاده هداية ونورا ، ومن كفر بها جلب على نفسه نتائج الكـــفر وباء بسخطه. ثم هو لا يسد عليه باب التوبة والرحمة . والسند على ما قدمنا قوله تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾ [١]وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ۝١٧ ﴾ [٢].

فأول هدايته عامة وتمام هدايته يترتب على أعمالهم فقال تعالى : ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٩٩ ﴾ [٣]. فليس من مشيئته أن يتم هدايتهم ويوصلهم إلى السعادة ، ولا من مشيئته أن يكرههم بعد أن أعطاهم التمييز والعـــقل ، فيكون ذلك نقضا لفعله وإبطالا لحكمته وعدله . فلا نقص في قدرته بل يعـــاملهم حسب أعمالهم ، فيهدي من يتقبل ويسخط من يأبى ، فيحل عليه نتائج سخطه . وقد صرح في القرآن بأن الله تعالى لا يهدي الفاسقين ، والظالمين ، والكافرين والمستكبرين الذين نبذوا الحق بعد العلم والبينة وجحدوا بآياته كما قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٠٤ ﴾ [٤](أي ما داموا على

---

[١] سورة الإنسان الآية : ١-٣ .
[٢] سورة محمد الآية : ١٧ .
[٣] سورة يونس الآية : ٩٩ .
[٤] سورة النحل الآية : ١٠٤ .

الإنكار بآياته سد عنهم سبيل الهداية) ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1].

وقال أصحابنا إن الله تعالى لم يهد الكافرين ، وإنما قالوا ذلك نظرا إلى إتمام الهداية . وأنكرت المعتزلة هذا القول نظرا إلى عموم رحمته وعدله ، والقرآن صرح بعموم الهداية في آيات كثيرة ، فمنها ما مر ومنها قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[2](فحولوا الضلالة إلى ترك الله إياهم) ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[3](فأجاهم الله عن هذين فقال) ﴿ بَلَىٰ ﴾ (أي قد هداك الله ولكنك لم تقبل هدايته) ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى

---

[1] سورة النحل الآية : ١٠٥-١٠٨ .
[2] سورة الزمر الآية : ٥٥-٥٧ .
[3] سورة الزمر الآية : ٥٨ .

لله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾[1](أي كذبوا بما قالوا إن الله تعالى لو هداهم لكانوا من المتقين) ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[2]. (أي جاءتهم آيات الله فاستكبروا عنها ولم يؤمنوا بها. وقال تعالى ....(بياض في الأصل)

من إفـــاداته

مدار الهداية والضلالة

(١) مدار الهداية والضلالة على التمييز والاعتماد وضدهما . قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾[3] فالمهتدي حديد النظر فيميز ويفرق فلا يلتبس عليه الأمور ، وشديد التصميم فلا يقدم رجلا ويؤخر أخرى ويتذبذب قال حافظ (الشيرازى) : در مذهب طريقت خامى نشان كفرست

آرى طريق رندان جالا كى ست وجستى

وبعض التفصيل : إن العقل بعد البيان إذا وقع في الشك وقال يمكن هذا وهذا ، وساوى بين اليقين والظن ، وتوهم الأباطيل وخلطها بالحقائق البينة فذلك ضلاله المبين . وأصل هذا ربما يكون من الهوى

---

(١) سورة الزمر الآية : ٥٩-٦٠ .
(٢) سورة الزمر الآية : ٦٠ .
(٣) سورة الزمر الآية : ١٧-١٨ .

الذي يخالفه اتباع الحق ، فيلقي الشبهات في العقل ويظلم عليه الأمر ، بل يعمله في تسويلاته ، فحينئذ يصير العقل عبداً للهوى ثم الهوى إذا اتبع ازداد قوة ، والعقل ظلمة والعزم ضعفا . وإذا عصى الهوى ازداد العقل نوراً ، والعزم قوة. قال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾[1] وقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾[2]فربط الخشية بالجنة ، وجعل الانتهاء عن الهوى واسطة . والمقصود أنه لا بد للهداية من شدة التمييز والتشمير ، وأن الارتياب كفر وضلالة ، وأن خير ما ألقى في القلوب اليقين ، وأن الهوى هو أعدى عدوك ، فإنه يميت أقوى ناصريك العلم واليقين . فلا بد من بيان أسباب هذا اليقين وأدوائه ، وأسباب الشك ودوائه .

(٢) لما كان التذبذب في العلم والعمل نتيجة لضعفهما ، ظهر أن كمال قوتي العلم والعمل هو كمال النفس ، وهو الاطمئنان لما هدى الله الإنسان .... ومع ذلك الهوى قد أشرب في القلب وسيط من دمه ، فيلزمه الصبر الشديد وهو القيام على الحق الظاهر قال تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾[3]. إنما ضم الصبر بالحق لكونه أكبر أعوانه . فالاطمئنان هو الكمال ، ولذلك طلبه الخليل عليه السلام

---

[1] سورة محمد الآية : ١٧ .

[2] سورة النازعات الآية : ٤٠-٤١ .

[3] سورة العصر الآية : ٣ .

حيث قال: ﴿ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾[1]. ولذلك قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾[2]. وأيضا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[3].

(٣) الاطمئنان ليس إلا الرجوع إلى مكنون الفطرة قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ ﴾[4]. فخلقة الإنسان كانت حسب ما قدر له وأودع فيه. وذلك بعد تمام النشأة، كما أن خلقة البذر في تقدير أمره وكمال غايته، وأول فكرته ما تصير إليه، فالمصير هو الأول فكرا وتقديرا، والآخر وجودا. فالاطمئنان خلاص من الهوى ورجوع إلى الرب، فإن النفس خلقت لذلك.

(٤) الهوى نشأ من إدراك النفس بذاتها بعد الخلقة، وهو بعد إدراكها بربها. فإنها إطاعته في أول وجوده في الكون وبكمال التعبد وهو المخلوقية. فلما رأتها مستقلة، ذات رغبات إلى غير ربها صارت ذات هوى، ولولا ذلك لما تزكت ولا تطهرت، فإن التزكية إسقاط الزوائد. فالنفس في أول فطرتها غير متدنسة، وطهارتها رجوعها إليها، وذلك اطمئنانها واستقامتها، ومقامها: ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ

[1] سورة البقرة الآية: ٢٦٠.
[2] سورة الفجر الآية: ٢٧-٢٨.
[3] سورة فصلت الآية: ٣٠.
[4] سورة التين الآية: ٤-٥.

مُقۡتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾[1]. أول طاعتها كانت كرها فإنها لم تكن. وبعد تعلقها بشهواتها صارت بردها إلى ربها وقمعها شهواتها وذلك بالاختيار والمجاهدة.

فالصعود عن حضيض الطبيعة هو الذي شرفها على الملائكة ، فالإنسان التائب كالواصل بعد الهجران . وشرفه الصعود عن الطبيعة التي هي نفسه وإلهه ، فقتلها وقربها وهذا هو الإسلام . (كما قال) ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾[2].......... (بياض في الأصل)

من إفــاداته

المخلوق حقيقته التعبد ، فان الخلق اشد التصرفات والمخلوقية أشد الإذعانات . ثم الخلق أكبر النعم ، فإن الجود بعد الوجود مبني على جود وهو الوجود ، والآلام عوارض زائلة .

فإن زعمت أن الخلق كان للتعذيب ، لم يكن خيراً ولا رحمة ولا جوداً . ولذلك قالوا إن الخلق أثر رحمته ، وعلى هذا كان التعبد والطاعة أول الفطرة ، وكان العصيان نقضا وإبطالا للفطرة . ولهذا كان التعبد خيرا وموافقا للوجود . وكل ذلك مبني على كون الخلق وأطواره جاريا على مناهج الرحمة ، كما قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ

---

[1] سورة القمر الآية : ٥٥ .

[2] سورة الصافات الآية : ١٠٣ .

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾[1]. فكونه تعالى أكرم الكرماء يستلزم إنعامه أولا بالخلق وثانيا إعداده الإنسان لأفضل النعم وهو العلم : ويشبهه أوائل سورة الرحمن مع زيادات ....

الهداية فضل من الله تعالى

(١) أما أولا فظاهر ، فإنه تعالى أعطانا العقل والتمييز وحب الخير والرغبة إليه . وأما بعد تلك الهداية الأولى ، فيعطينا بعد أعمالنا فضلا وزيادة كما نزرع حبة فيعطينا مأة حبة بل سبع مأة حبة ، هذا .

(٢) الهداية وإرادة الخير والرغبة إليه لا تأتي من جهة العقل فقط ، بل يعطيها الله لمن أطاع العقل وسلك سبيله ، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ۝ ﴾[2]أي يجهلون بأن الهداية منة من الله ، فيطلبون الآيات البينات مع كبرهم وعدم التفاتهم إلى الآيات العادية وغفلتهم ، وقال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝ ﴾[3].

---

[1] سورة العلق الآية : ١-٥ .
[2] سورة الأنعام الآية : ١١١ .
[3] سورة الأنعام الآية : ١٠٩-١١٠ .

(٣) ومن ههنا يتبين الحاجة إلى طلب الهداية من الله تعالى والدعاء لـــها ، ومن ههنا صارت الصـــلاة أول الشـــرائع . قال تعالى: ﴿ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [١] وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [٢]. وفي ذلك آيات كثيرة.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [٣] فيمن الله على من شكر . والمراد من الشكر هو إطاعة العقل والنور الفطري كما قال: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [٤]. ومن سنة رحمة الله الزيادة على الشكر كما قال: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [٥]. والصلاة بنيت على الشكر فصارت أكبر مجلبة للهداية . ثم الكبر أكبر الحجب ، والصلاة بنيت على الخشوع فصارت أكبر دواء ....(بياض في الأصل)

محل الهداية والضلالة

(١) ليس كل شيء محلا للهداية والـــضلالة ، فإنـــا نعلـــم أن

---

[١] سورة البقرة الآية : ١٥٣ .
[٢] سورة الأعراف الآية : ١٧٠ .
[٣] سورة الأنعام الآية : ٥٢-٥٣ .
[٤] سورة الإنسان الآية : ٣ .
[٥] سورة إبراهيم الآية : ٧ .

الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في كثير من الفروع ، وكذلك المجتهدون من السلف ، ومع ذلك لم يكونوا عند المسلمين من الضالين . وكان النبي ﷺ يستشير أصحابه ، فتختلف آراؤهم وكان النبي ﷺ يأخذ برأي بعض دون بعض ، ويمدح كليهما لما يرى من طهارة نياهم وتحريهم مرضاة الله بل ربما يكون حكم النبي ناشئا عن كمال الرأفة والسماحة وينزل الوحي بخلافه لما خفي عليه بعض الأمور .

والعقل موقن بأن هذه الآراء والأحكام طاهرة عن دنس الضلالة ، وهذا أمر ظاهر مسلم عند المسلمين وذكره العلماء ، ولكن ربما يغفل عن التحديد والتعريف لمحل الضلالة وعن نتائجه المهمة ، فنعرفه أولا ، ثم نذكر ما يستنتج منه .

(٢) فاعلم أن محل الضلالة ما شنع عليه الكتاب والسنة بالذم والوعيد كالشرك ، والفساد في الأرض والقتل بغير الحق ، والبغي ، والفحشاء ، والجراءة على المعاصي ، ونبذ الطاعة ، والتفرق عن الجماعة ، وركوب سائر الكبائر .

ومن نتيجة هذا التعريف إنك تفهم معني الإجماع وحده ومنتهاه وتفهم معنى الكتاب والخبر الذي يتمسك به في قبول النقول ....(بياض في الأصل)

من إفاداته

الاختلاف في أمور الهداية والضلالة يجعل فرقتين : مهدية

وضالة ، والاختلاف فيما وراءها يجعل درجات للمؤمنين ، فالمختلفون فيه على درجات مختلفة من الحكمة والرشاد ، ولذلك لا تثريب على من أخطأ في كثير من تفاسير الآيات إذا لم يقع في اعتقاد ضال ، فإن المجتهد قد يخطئ وقد يصيب......

الأمة المهدية واحدة في نصح أفرادها بعضهم لبعض . فأتباع الأئمة الأربعة هم على طريق السلف ، فإنهم لم يعاند بعضهم بعضا على الفروع . وأما الأصول : فمنها ما لم نؤمر بالتعمق فيه فالاعتقاد المجمل يكفي ، فتبين لنا أن أهل السنة هم أهل الحق ، وصار النصح معيار الهداية والضلالة ....

الجبر والاختيار

هذه المسئلة لا تختص بالمسلمين ، بل قد اختلفت فيها اليهود والنصارى وطال خصامهم ، وكذلك الفلاسفة سواء تدينوا بدين أو أنكروا به. فيحسن بنا أن نبحث عن المسئلة من جهة العقل والنقل كليهما .

وأول الأمر تعريف الجبر والاختيار ، ثم تنقيح موضع النزاع ، وبعد ذلك نذكر الدلائل العقلية من الفريقين ونفرق بين صحيحها وسقيمها ، ثم نذكر ما جاء به القرآن الحكيم ، ثم ندل على مثار الخطأ في فهم معناه ....

---

(١) هل الإنسان مجبور أم مختار ؟ فلا بد من تغيين معنى الجبر والاختيار وهما من صفات الأفعال .

الأفعال الصادرة من غير سبق إرادة تسمى اضطرارية ، والتي تتبع الإرادة وتوافقها تسمى اختيارية. فالإرادة تخالف الجبر والاضطرار ، والإنسان ذو إرادة ، فأفعاله التابعة لإرادته ليست بالجبر. فبقي السؤال في الإرادة ، والظاهر أن الإرادة لا تكون بعد إرادة وإلا لتسلسل الأمر ، وهذا هو عين الجبر .

فنقول إن الإنسان مضطر أن يختار الخير لنفسه ، فمن اختار الشر فإنما هو إما من جهل أو من غفلة ، فلزم التعليم والتنبيه فإن فرض

الإنسان مضطرا فإنما هو مضطر إلى الخير .

ثم نقول إن الإرادة وإن لم تكن مسبوقة بإرادة ولكنها أمر حادث ، فلا بد أن يسبقها أمر ما ، فلننظر في هذا السابق .

(٢) الإرادة تتبع الطبيعة والخلق وبحسب ذلك تتعلق بالأمور ، الجواد يعطي الفقير لاقتضاء طبعه وخلقه وذلك لا يسمى جبرا . والإنسان ربما يكتسب عادة السوء فلزم إصلاحه بالتأديب والتخويف . وطبيعة الإنسان تتضمن اختياره وإلهامه بالفجور والتقوى كما تتضمن ميله إلى الشهوات ، والحاكم هو القلب ونفسه المختارة . فإن حول الأمر إلى الطبيعة وجعلت هي أصل الإجبار لم يبطل اختياره ، بل اختياره هو المجبر على إرادة ، فكيفما يجري اختياره تجرى إرادته .

(٣) من يتمسك بعلم البارئ تعالى ويظن أنه لا ملام على فاعل الشر فإن فعله إنما كان متحتما . يجاب بأن علم البارئ تعالى لم يكن بذلك الفعل فقط بل أحاط بسلسلة عللها ، ومن جملة العلل إرادة فاعل الشر وكون إرادته من قبل نفسه ذات الاختيار . فإن قيل إنها كانت مجبورة ، قلنا إنه لم يثبت جبرها ، بل الغالب على الوجدان عدم الجبر ، ولا يقاس ذلك على تتابع الآثار في الجوامد فإنه قياس مع الفارق ، فإن الجوامد لا إرادة لها ، والجبر أو الاختيار إنما يكونان لذوي الإرادات .

(٤) قد أيقنا بأن الإله كريم ورحيم ، ومحال أن يضطر الإنسان على الشر ثم يعاقبه ، وعجز الناس في معرفة الإرادة لا يبطل الحق المبين.

(٥) من أرسخ أصول العلم أن يؤخذ من المفروضات ما تنحل

به الإشكالات ، والقـــول بالجبر هادم لوجدان المدح والذم ، والشرائع والقوانين ، ولحسن العقيدة في البارئ تعالى . فإنه من أقبح القبـــائح أن يضطر إلى الشر ثم يعاقبه ويلومه ويسخط به.

(٦) علم النفس من أصعب العلم وميل المنكـــرين إلى ترجمـــة أحوالها بالقياس على الجوامد . وبذلك ينفون خاصتها : وهي الفعـــل والإرادة والاختيار . فالقائلون بالجبر من الفلاسفة هم الذين ينكـــرون بالروح ، وأما القائلون به من المليين فمن وجهين : من قبـــل الإيمـــان بالقدر ، وذلك غير مستلزم للجبر فإن العلم غير الفعل والقدرة . أو من قبل إحاطة قدرة الرب ، وذلك أيضا غير مستلزم للجبر فإنه تعالى قادر على أن يعطي الاختيار والقدرة لبعض مخلوقه . وعلى كل حال فليست المسئلة من اليقينيات الظاهرة ، فلا يتمسك بها لهدم اليقينيات المسلمة .

(٧) الإرادة ليست هي الفعل ، إنما يتبعها الفعل ، والفعل غـــير الانفعال ولا فعل في الجبر .

(٨) تمسكوا بأن الفعل خلاف علم البارئ تعالى مستلزم للمحال وذلك يثبت الجبر . وهذا لا يصح فإن ذلك يثبت الجبر في البارئ تعالى أيضا وهو محال ولا يقول به المليون . وكشف ذلك أن علم البـــارئ تعالى إنما تعلق بالواقع ، والواقع يشمل ما كان اضطراريا ومـــا كـــان بالإرادة والمشيئة ، فعلم البارئ تعالى بالأفعال الإراديـــة لـــو جعلـــها اضطرارية لم يكن مطابقا للواقع ، وهذا خلف . فإن قيل هذه مصادرة على المطلوب ، فإنك لم تثبت بعد أن من الأفعال ما هـــو اختيـــارى ؟

أجبناك بكون أفعال البارئ تعالى اختياريا فإنه مسلم عندك . وأما الذي لا يؤمن بالإله الرحيم الحكيم ، فلا تمسك له بعلم البارئ تعالى ، وقد أجبنا عن قياسه مع الفارق .... (بياض في الأصل)

من إفاداته

لو كان العلم القديم دليلا على الجبر ، لكان ذلك صحيحا في أفعال البارئ تعالى أيضا ، فإنه يعلم كل ما يقع ....

الأفعال يتبع الإرادة ، والإرادة تنشأ من غير إرادة ولكن لا جبر. فالحل : أن أول الأمر الميل ، ثم حكم النفس بكونه خيرا أو شرا . ثم طوع : إما للميل الأول وهو التعبد للهوى ، وإما للحكم الثاني وهو العبادة للرب . فالإنسان إما هو مطيع للهوى أو مطيع للرب ، وهذا الطوع انفعال وهذا هو المسمى بالإرادة.

ثم العبد بعد الإرادة يكون فاعلا لما أراد لا خالقا ، فهو بطوعه يكسب لنفسه خيرا أو شرا ، والاختيار هو طوعه إما لهذا أو لذاك . ثم بعد الفعل تنشأ عادة أو قوة للميل أو الحكم ، وهذه تزداد حتى لا يبقى الاختيار . ولكن الله تعالى خلق للنفس ندامة تقاوم العادة ، فكل سيئة تقوى الهوى وكل ندامة تقوى التقوى ، ولكن الندامة تضمحل

بالسيئات حتى يطبع على القلب وهذا ما صرح بــه القــرآن كــثيرا

من إفاداته

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾[1]. التعبد اثنان :

١ـــ كرهـــا عـــلى النفس بردهـــا عن ميلها ، كما قال تعالى: ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾[2].

(٢) طوعاً حيث لا ميل إلا إلى التعبد ، كما قال تعالى:﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[3].

والإنسان خارج عن الشيء ، فإنه الشائي المريد حتى ينتزع عن إرادته بالتعبد الكامل ، ويتقرب بالنوافل ليحسم حب الإرادة بالصلاة ، ويحسم حب الشهوات الخارجة بالزكاة .....

من إفـــاداته

(١) هل في إخبار الله تعالى عن قوم أنهم لا يؤمنون إجبار ؟ كلا بل الإخبار مثل العلم غير مجبر ، إن ما أخبر به علم منهم .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٤٤ .
(٢) سورة النازعات الآية : ٤٠ .
(٣) سورة فصلت الآية : ١١

(٢) هل في فعل الختم إجبار ؟ نعم ، ولكنه بعد فعلهم وجــزاء ولزوما .

(٣) ما النسبة بين المحكوم عليه والحكم ؟ نسبة الأثر والمؤثر .

(٤) كيف نسبة فعل الحكم إليه تعالى ؟ إما من جهة المنع ، أو إيقاع الأثر ....

في بيان أن هذا الختم والغشاوة من نتائج أعمالهم

وليس أن الله تعالى ختم على قلوبهم من أول الفطرة [1]

اعلم أن الله تعالى جعل أحوال القلب أسبابا لأعمالها وإرادتها ، وبين في كتابه أن القلب يفسد بالسيئات حتى يصير لاينفعه نصح ولا إنذار كالمريض الذي لا يرجي برؤه ، بل كالذي شرب السم فمات فلا يعالجه الطبيب بعد موته . وبذلك حذرنا عن ارتكاب المآثم وحثنا على المبادرة بالتوبة وعلى ترك من لا ينتفع بالذكر فليس لأحد أن يرتكب المآثم أو يبقى على الكفر ويمني نفسه أن يتوب إذا شاء بعد ما قضى نحبه من شهواته . فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (٢). فهذا تصريح بأن الطبع مما يصيبهم الله به لأجل ذنوبهم ، وأي بيان يكون أشد تصريحا من هذا: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ

---

[1] من تفسير سورة البقرة للمؤلف ، وهو يشير إلى الآية : ٦-٧ من السورة .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٠٠ .

أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1]. أي كانوا ينقضون العهد ويرتكبون الفسق وكفروا بما جاءهم من البينات والأدلة الواضحة ، فبذلك لم يكونوا فيما بعد ليؤمنوا بما كذبوا من قبل . فهذا تصريح بأن أفعالهم الشنيعة جلبت عليهم سنة الله فطبع على قلوبهم .... وقال تعالى في ذكر المنافقين: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾[2]. أي بعد وضوح الحق والإيمان كفروا فقست قلوبهم وعميت . وقال تعالى في ذكر اليهود: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾[3].......قد تشبثوا بأن الله تعالى إنما خلق قلوبهم غلفا ولذلك لا تبلغها دعوة النبي فأبطل الله تعالى تمسكهم بهذا العذر وبيّن أن ذلك إنما هو لكفرهم ولما ذكر من آثار ذلك الكفر .... وبالجملة فإن ما ذكره الله تعالى ههنا من الختم والغشاوة إنما هو جزاء ما فعلوا أنفسهم وما اقتحموه من الكفر والجحود والإعراض عن الحق بعد تبينه [4] .

---

[1] سورة الأعراف الآية : ١٠١-١٠٢ .

[2] سورة المنافقون الآية : ٣ .

[3] سورة النساء الآية : ١٥٥ .

[4] انظر تفسير سورة البقرة للمؤلف ص:١٣٨ــ ١٤٠ .

بيان أنه لا متمسك ههنا للمجبرة ، وفيه نقد كلام الرازي رحمه الله

قد تبين مما ذكرنا من الشواهد وتأويل الآيتين أنه لا متمسك فيهما للقائلين بأن الله تعالى خلق بعض الناس للكفر فطبع على قلوبهم من أول الفطرة . نعم قد صرح القرآن بأن الله تعالى يطبع على قلوب المنكرين بعد ما أصروا على كفرهم وقد تبين لهم الحق .

وإنما ذهب من ذهب إلى الجبر لأنهم لم يفرقوا بين الجبرين وأولوا الآيات الدالة على الجبر التابع لأعمالهم إلى الجبر الفطري، فابتدعوا عقيدة قد صرح القرآن بخلافه ، وقد أنكره السلف كما سنذكره .

وإذ أنكره المعتزلة تصلبوا فيه وزعموا أن الحق لايكون مع مخالفيهم ، وهذا أصل باطل أم الأباطيل ، فإن الحق لايعرف بقائله بل بدلائله . وبعد ماكشفنا عن صحيح التأويل لم تكن لى حاجة إلى بسط الكلام فيه وليس من شرط كتابنا هذا الدخول في مشاجرات المسلمين ولكن لما ذهب المتكلمون منا إلى الجبر أو مايقرب منه ، وملأ الرازي رحمه الله تفسيره منه وجعل الجبرّ الصريح مذهب أهل السنة وأطال البحث عنه في تفسير هاتين الآيتين وهما في أوائل القرآن ، فصار ذلك عثرة في أول الطريق . وأهل السنة غير الرازي رحمه الله ينكرون القول بالجبر فاضطررت إلى ذكر خلاصة كلامه ونقده...

تقرير أهل الجبر

تمسك أهل الجبر بثلاثة أقسام من الدلائل :

(١) محض المعقول .

(٢) المخلوط من المعقول والمنقول .

(٣) محض المنقول .

أما الأول فتمسكوا فيه بثلاثة أمور :

(١) كل حادث ينتهي إلى علة ترجح وجوده على عدمه ، فكذلك أفعال الإنسان تنتهي إلى الإرادة وهي إلى الدواعي التي وراء أفعالهم وإراداتهم ، فهم مجبورون فيهما .

(٢) إثبات الخالق مبني على الاستدلال بالأثر على المؤثر ، وهو على أن الممكن لايحدث إلا بعد وجود ما يرجح وجوده على عدمه . فتجويز الحادث من غير مرجح يهدم أكبر ما عليه بناء الاستدلال على وجود البارئ تعالى وتسليم مسئلة الترجيح يوجب الجبر كما مر في الدليل الأول . وهذا الاستدلال معظم ما يعتمد عليه المتكلمون من الأشاعرة.

(٣) تجويز أن العباد مختارون فيما يفعلون يجعلهم شركاء الله تعالى في الخلق ، وعلى هذا الأصل نبطل عقيدة الثنوية . وإذاكان هو الخالق الواحد والخلق إنما يكون بالمشيئة والإرادة ، فكل ما كان في الكائنات من الخير و الشر ، والبر والإثم ، والإيمان والكفر فكله بمشيئة الله تعالى وقدرته ، وهذا يبطل قدرة المخلوق فيما يفعل من خير وشر . وهذا الدليل لا يحتاج إلى نقل وقد ورد به النقل أيضا كما سيأتيك ، ومبنى هذا الاستدلال الاعتقاد بكونه تعالى متوحدا في القدرة ، وهذا

الاستدلال عمدة أهل الحديث من الأشاعرة وبه اشتد نكيرهم على المعتزلة فيسمونهم مجوس هذه الأمة لما أن المعتزلة ينسبون إلى العباد خلق أفعالهم .

وأما الثاني فتمسكوا فيه بثلاثة أمور :

(١) بعلم الله القديم المحيط بكل شيء مما كان ويكون ، وقد جاء به النصوص الصريحة وهو ظاهر أيضا من جهة العقل ، فكل شيء من الحوادث لابد أن يحدث كما علمه الله من قبل ، وعلى هذا لايبقى الاختيار لمخلوق ، فإن الله تعالى قد علم أن عباده يريدون ويفعلون كذا وكذا ، فلو أرادوا خلاف ذلك أوفعلوا ماليس في علمه تعالى انقلب علمه تعالى كذبا وهو محال ومستلزم المحال محال . بل فطرهم بحيث إن يريدوا ويفعلوا ما يطابق بعلمه القديم لكي لا يكون علمه كذبا ، فهم مجبورون في كل مايفعلون أويريدون . بل لوأرادوا خلاف علمه لم يمكنهم إجراء تلك الإرادة ، وهذا عين الجبر ، وهذا الدليل عام يجري في كل شيء .

(٢) بإخباره تعالى حسب علمه عن قوم بما يفعلون في مستقبل أمرهم من الكفر والضلال ثم أمرهم بالإيمان والبر فأجبرهم أولا على أفعالهم السيئة . فإنهم لوفعلوا خلافه انقلب إخباره تعالى كذبا ثم أجبرهم مرة أخرى إذ أمرهم بما لا يطيقونه من فعل الخيرات والاجتناب عن السيئات ، فهذا إجبار آخر وهو ما يعبر عنه بالتكليف بما لايطاق . ومن هذا القبيل ما أخبربه عن أبي لهب أنه من أهل النار ، فإنه كلفه الإيمان

بالقرآن مع الإخبار عنه بأنه لايكون أبدا من المؤمنين بما أخبر أنه من أهل النار . فأجبره على ما لايطيقه بل بالمحال وهو الجمع بين النقيضين بما أمره بأن يؤمن ويؤمن بأنه لا يؤمن .

(٣) بما أخبر عن فعله المجبر فإنه أخبر عن قوم أنه قد طبع على قلوبهم وأضلهم أو أنه يطبع أويضل قوما فلا يستطيعون قبول الحق . وهذا الإجبار ليس بمحض استلزام المحال بانقلاب علمه القديم أوخبره الحديث فيكون إجبارا بالواسطة بل هو نفس الإجبار ، فإنه طبع على قلوبهم فسدهم عن قبول الحق . ثم بعد ذلك لم يضع التكليف عنهم بل لم يزل يأمرهم بقبول الهدى ويلومهم على إنكارهم به ونبذهم إياه ، فكلفهم أن يفعلوا ما سلبهم استطاعته . فأجبرهم على الضلال ثم كلفهم بما لا يطيقونه وهو إجبار ظاهر .

وأما الثالث فتمسكوا فيه بثلاثة أمور :

(١) ما جاء في الأحاديث أو القرآن من تقدير كل أمر ، ومنه أن الله جعل الناس في أول فطرقم سعداء أو أشقياء وكتب عليهم بالجنة أو بالنار ثم يسرلهم ما خلقوا له .

ما جاء في القرآن من مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾[1] فجعل إرادامم طبعا لإرادته ، وهذا عين الإجبار .

(٣) ما جاء في القرآن من أن الله تعالى هو خالق كل شيء وقال

[1] سورة الإنسان الآية : ٣٠ .

تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾[1]. فأعمال العباد من الإيمان والكفر ، والخير والشر كله بخلقه تعالى وهم ليسوا بخالقين لما عملوا . فالله تعالى هو الذي يخلق الإيمان والكفر في قلوبهم فيكون ما يخلق فيهم ويظهر على أيديهم وهم يكسبون به لأنفسهم الثواب والعقاب . وهذان الأخيران مما لايحتاج إلى النقل ، فهما داخلان في الدليل الثالث من القسم الأول .

دلائل الجبر و نقدها

ظن بعض فرق المسلمين أن القرآن جاء بالجبر صـــراحة واستدلالا ، أما صراحة فذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[4]وغير ذلك .

وأما استدلالا فإن القرآن قد صرح بكون كل شيء مقدرا ومنه أعمالنا ، فلا اختيار لنا في ما هو مقدر ، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴾[6]. وأمثال ذلك كثيرة .

فحل المسئلة بتحقيق معنى المشيئة والتقدير وموضع الآيات ....

---

[1] سورة الصافات الآية : ٩٦ .
[2] سورة إبراهيم الآية : ٢٧ .
[3] سورة فاطر الآية : ٨ .
[4] سورة الإنسان الآية : ٣٠ .
[5] سورة القمر الآية : ٤٩ .
[6] سورة الرعد الآية : ٨ .

آيات المشيئة التي تمسك بها المجبرون

قد علمنا من القرآن أن الله تعالى لايشاء إلا ما هو الحق المحض ، وأيضا قد علمنا من القرآن أن الله تعالى هو الحق ، ويحب الحق ، ويحكم بالحق . وأيضا قد علمنا من القرآن أن الله تعالى هو القـــادر المختـــار ، وذلك بأن مشيئته ليست تحت قدرة غيره وأنها حسب صفاته الأزليـــة وأسمائه الحسنى ، ومنها الحق .

فبعد هذه العلوم ننظر فيما تمسك به المجبرون من آيات القرآن ، فلا بد من تأويلها إلى محكمات الآيات فمنها قوله تعالى في آخر سورة الدهر ، وفي آخر سورة التكوير ، وفي آخر سورة المدثر وغير ذلك .

تأويل آيات المشيئة

جل متمسك المجبرة نقلوا آيات المشيئة فنذكرها ونـــدل علـــى تأويلها ، فاعلم أن الله تعالى علمنا أنه مالك الملك يفعل ما يشاء ولا راد لمشيئتة ، فدل بذلك على عموم قدرته ونفي أنداد له وشـــفعاء باطلـــة رجوا منهم نصرة وتوكلوا عليهم مع الإصرار على معصية الله . فعلمنا إحاطة رحمته ونعمته ، فمن شاء غفرله ومن شاء عذبه ، ومن شاء هداه ومن شاء أضله . فإنه لو عجز عما أراد لم يـــكن إلها ، فلا رحمـــة ولا نقمة ، و لاهداية ولا ضلالة ، ولا شفاعة بالنفع والضرر إلا بمـــشيئته وإذنه ، فهو الذي نرجوه ونخاف ونتوكل عليه .

ثم كما أنه تعالى علمنا أنه مالك الملك يفعل ما يشاء ، فكذلك

علمنا أنه لايشاء إلا الحكمة والعدل والرحمة ، ودل بذلك على أن لا نطمع الباطل والقبيح .

فهذان أصلان راسخان يتقبلهما العقل ويصرح بهما القرآن ، والآن نذكر آيات المشيئة (وتأويلها) .

(١) قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝٣٠ ﴾[1]. فبين أنه يبسط ويقدر حسب علمه بعباده، فلا يشاء إلا الحق .

(٢) وقال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧ ﴾[2]. أي يثبت من يشاء ويضل من يشاء فلا يمكن أحدا أن يرد ذلك ، ولكنه تعالى بين من قبل ذلك أنه يثبت المؤمنين ويضل الظالمين . فعلمنا أنه لا يشاء إلا ما هو الحق والعدل .

(٣) وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ ﴾[3]. فعلمنا أنه يدخل في رحمته من آمن به وحده فإنه تعالى قال: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٣٠ .

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٢٧ .

(٣) سورة الشورى الآية : ٨ .

خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾[1]. فعلمنا أن الله تعالى ولي المؤمنين فيهديهم ويدخلهم في رحمته وذلك هو مشيئته وهو الحق المحض وأما الظالمون الذين يجحدون بآيات الله تعالى فوليهم الشيطان ، فلا يدخلهم الله في رحمته وذلك أيضا مشيئته وهو الحق المحض .

(٤) وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾[2]. فدل سياق الكلام على أنه إن آمنتم واستقمتم بعد الزيغ يغفرلكم .

(٥) وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[3]. فبين أن من سنة الله تعـالى أنه يتوب على من تاب وأصلح ، وهذا من مشيئته ولا راد لها فهو مالك الملك .

(٦) وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾[4]. أي مشيئته

---

[1] سورة البقرة الآية : ٢٥٧ .
[2] سورة الفتح الآية : ١٣-١٤ .
[3] سورة المائدة الآية : ٣٨-٤٠ .
[4] سورة الإنسان الآية : ٢٩-٣١ .

تجري على العلم والحكمة ، فمن آمن بالله واليوم الآخر وبما أنزل يوفقه أن يتخذ إلى ربه سبيلا كما قال : ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[1]. وكما قال: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ ﴿٢٥٧﴾ ﴾[2].

﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ﴿٣١﴾ ﴾[3] بين هذه المشيئة في آية ٣٠ من سورة الجاثية وهي. ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ﴿٣٠﴾ ﴾.[4]

(٧) وقال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[5]. أي إن الله تعالى رب العالمين فهو يدبر حسب مشيئته ذات الحكمة والرحمة كما قال: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴿١٥٦﴾ ﴾[6].

(٨) وقال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾[7]. قد قال قبل ذلك إنهم لا يخافون الآخرة فهؤلاء لا يذكرون . وهكذا قال : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾[8]. فالاذكار بالقرآن لا يحصل إلا

---

[1] سورة التغابن الآية : ١١ .
[2] سورة البقرة الآية : ٢٥٧ .
[3] سورة الإنسان الآية : ٣١ .
[4] سورة الجاثية الآية :٣٠ .
[5] سورة التكوير الآية : ٢٧-٢٩ .
[6] سورة الأعراف الآية : ١٥٦ .
[7] سورة المدثر الآية : ٥٤-٥٦ .
[8] سورة النازعات الآية : ٤٥ .

بعد الخشية والإنابة إلى الله تعالى ، فمن فعل ذلك آتاه التقوى وغفر له فأدخله في رحمته وأصلح باله ، وكلما ازداد في الإنابة ازداد صلاحا .

(٩) وقال تعالى :.............. (بياض في الأصل)

الحكمة الخاصة في إكثار ذكر المشيئة

أصل الدين أن نحب الرب ونتوكل عليه ونلتمس رضاه ، ولا بد لذلك من ذكره ودعائه ، ومن إبطال كل ما يخالف ذلك . وغلب على كثير من الناس أوهام :

فمنهم من زعم بوجوب الآثار فوقع في وهم تعطيل الرب .

ومنهم من اتكل على الأعمال فالتزمها واستغنى عن محبة الرب .

ومنهم من اعتمد على الشفيع فعبده وترك الرب .

فالآثار والأعمال والشفعاء كل ذلك تحت مشيئة الرب . فلا نفع ولا ضرر ، ولا هداية ولا ضلالة ، ولا مدد ولا شفاعة إلا بعد إذنه. فإنه تعالى هو المبدع ، والخالق لكل شيء ، ولا يفعل شيئا بالوجوب عليه بل بمشيئته ....

عدم الإكراه

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾[1]. فإنه لا راد لمشيئته ، فإنه تعالى لو شاء بأي طريق كان ، لفعل

---

[1] سورة يونس الآية : ٩٩ .

ولكنه لم يرد ذلك إلا على نهج العدل والحكمة فلم يكرههم . ولذلك وجب على النبي أيضا أن لا يكرههم فبين ذلك بقوله : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾[1]. أي نحن اذ لم نكرههم فهل أنت تكرههم ؟ وإنكار ذلك بين ، لأن ذلك خلاف حكم ربك. ثم هذا طلب محال ، فإن الرب تعالى إذ لم يكرههم فقد خلاهم بين استعمال النظر في الآيات الظاهرة والتغافل عنها ، فتغافلوا فجرى عليهم سنة الله الحكيمة ، فلزمهم رين التغافل فسدوا عن الإيمان ، ولا يؤذن لهم إلا أن يتوبوا ويتحولوا عن تغافلهم ، و بين ذلك فقال :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[2]. فعلم أن من الناس من لا يؤذن لهم لسيئة منهم ، كما يتضح بما بعد ذلك وهو قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[3].أى لا يعقلون ما بين الله من آياته في العالم ، فليس للنبي إلا تكرار الذكر ، لينتبهوا ويتفكروا في آياته فقال :﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[4].أي من الآيات والنذر ، فمن كان فيه ذرة من تنبه العقل تفكر في عواقب الأمور فهدى وإلا فلا . فبين ذلك بقوله :﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[5]. وهؤلاء الذين لا يتفكرون محال أن

---

(1) سورة يونس الآية : ٩٩ .

(2) سورة يونس الآية : ١٠٠ .

(3) سورة يونس الآية : ١٠٠ .

(4) سورة يونس الآية : ١٠١ .

(5) سورة يونس الآية : ١٠١ .

ينتبهوا ويخافوا العواقب ، فحالهم كحال المنكرين السابقين فهم بشهادة حالهم ينتظرون العذاب ، كما بين فقال: ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾[1].

وقال تعالى : .... (بياض في الأصل)

من إفــاداته

العمل يمكن فيه الإكراه، وأما العلم والإيقان فلا مجال فيه للإكراه. والدين أوله ورأسه الإيمان، فلا إكراه في الدين كما صرح به القرآن:﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾[2].

في إبطال الإجبار

(١) صريح العقل وحسن الظن بالرب تعالى يشمئزان عن ما ذهب إليه الأشاعرة من القول بأن الله تعالى يجوز له تعذيب العباد من غير ذنب ، وقد أجبرهم على فعل ما يجلب عليهم العذاب من غير سابقة ذنب منهم . لا شك أن الإحسان إليهم من غير استحقاق ولا سابقة حسنة حسن ، ولكن التعذيب من غير جريمة أو الإجبار على

---

[1] سورة يونس الآية : ١٠٢ .
[2] سورة البقرة الآية : ٢٥٦ .

الجريمة ظلم شنيع ، تعالى الله سبحانه عن ذلك . وقد دل صريح القرآن والعقل على نفي ذلك مثلا: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴾[1]. وهذا كثير .

ولو جاز هذا لما احتج على المشركين بأنهم أقروا أولا بالتوحيد ، وأن التوحيد من فطرة الناس التي فطرهم عليها كما قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣ ﴾[2]. فلو كان جائزا أن يهلكهم بغير جريمة لم يكن لهذه الحجة موضع ، ولقال لهم إنما نعذبكم لأنا نريد ذلك ، وليس لكم أن تسألونا عما نفعل ، كما فهمت الأشاعرة من قوله تعالى: ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣ ﴾[3].

(٢) وقد استدلت الأشاعرة بهذه الآية ، وبأن حكمنا بأن هذا الفعل حسن لله تعالى أو قبيح حكم على ربنا وهو أرفع من أن يحكم عباده عليه . ثم زادوا على ذلك وقالوا إن الحسن والقبيح لا يعلم بالعقل، بل لا حسن ولا قبيح إلا ما حكم الله بكونه حسنا أو قبيحا في حقنا. فنقول إن الله تعالى فطرنا على معرفة الحق والباطل ، والحسن والقبيح ، وأوضح لنا ذلك بكتابه ، وفطرنا على صراط مستقيم وعلمنا

---

[1] سورة الحج الآية : ١٠ .
[2] سورة الأعراف الآية : ١٧٢-١٧٣ .
[3] سورة الأنبياء الآية : ٢٣ .

وألهمنا أنه تعالى على الصراط المستقيم . ولولا ذلك لما أمكن خطابنا ، ولا الاحتجاج علينا ، ولا لهدم بناء المدح والذم وتقديس الرب تعالى وحمده وشكره .

وأما حديث الحكم على الله تعالى فلا يلزم أبدا ، فإنا قد آمنا بجميل صفاته وقدسه فليس إنا نحكم عليه بل ننفي عنه كل قبيح ألهمنا بقبحه وأوضح ذلك بكتابه .

وأما حديث السؤال فنقول إنا آمنا بأنه تعالى لا يفعل إلا ما هو الخير والحسن ، وكثير من أفعال ربنا لا نستطيع أن نعلم الحكمة التي فيه ، وليس لنا أن يطلعنا ربنا على حكمة جميع أفعاله ، فكيف بنا أن نسأله لم فعل ذلك ؟ أليس يكفينا أن نؤمن أنه حق وحكمة وحسن .

وللسؤال وجوه فيختلف بحسبها، فربما يكون السؤال من العبد المطيع لربه على سبيل الاستعجاب كما سأل موسى عليه السلام حيث جاء في سورة الأعراف: ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ ﴾[1].

وربما يسأل العبد الصالح المطيع لربه سؤالا فيه شوب من الإنكار، كما سأل نوح عليه السلام حيث جاء في سورة هود: ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ ﴾[2]

---

[1] سورة الأعراف الآية : ١٥٥ .

[2] سورة هود الآية : ٤٥-٤٧ .

ويشبه ذلك سؤال الملائكة حيث ذكر الله تعالى لهم أنه جاعل في الأرض خليفة .

وهذا القسم الأخير مما لا ينبغي للعبد ، ألا ترى كيف أجاب الله نوحا وكيف استغفر نوح عليه السلام لسؤاله ، ونبهه على أن سؤاله من الجهل بحكمة أفعال ربه ، ويشبهه ما أجاب به الملائكة كما قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1]. فلم يجبهم بأنه إنما أراد ذلك وليس لكم أن تسألوا عما يفعل . ولو صح ذلك الجواب لما أخبر الملائكة بما هو فاعل ، ولما سألوه فنبههم على أنه تعالى يعلم ما لو علموه لما سألوه ولا أبدوا شبهة . وبالجملة فليس للعباد أن يسألوا عن فعل الرب على سبيل الإنكار ، بل عليهم الإيمان بأنه حسن وحكمة والإذعان لما يأمرهم به .

(٣) واستدلت الأشاعرة بأنهم يعلمون أنه لا خير لمن خلقه الله بعد ما علم أنه يموت كافرا ويخلد في النار ، وزادوا على ذلك فقالوا إنه تعالى أجبرهم على الكفر ، فإنهم بعد علمه تعالى بكفرهم مجبورون على الكفر . فنقول إن لزوم الإجبار من علمه تعالى القديم باطل ، وهو مبسوط في موضعه . وأما عدم الخير لمن خلقه الله وهو يعلم أنه يموت كافرا ، لا ينفي الخير عن فعل الرب . فإنه تعالى خلق كل شيء لحكمة وخير ، فإن الفعل الخاص ربما يكون فيه خير كثير ولا يلزم أن يكون فيه

---

[1] سورة البقرة الآية : ٣٠ .

خير لكل خلق . وعلم الله تعالى هو المحيط بكل خير يكون في ما خلقه، وعدم علمنا بذلك كله أو بعضه ضروري . والجهل بشيء لا يلزم الإنكار به مع العلم الإجمالي بأن فيه خيرا وحكمة. ألا ترى كيف نبهنا الله تعالى على ذلك جيث ذكر قصة موسى عليه السلام مع صاحبه ، ألا ترى كيف خفي على موسى حكمة فعل صاحبه فلم يصبر عليه وسأله على سبيل الإنكار ، فلم يجبه بأنه إنما فعل ما فعل بأمر الرب بل بين الحكمة ، ثم قال لم أفعل ذلك إلا بأمر الرب ......(بياض في الأصل).

المسلك الجامع

قد أعطانا الرب تعالى الاختيار والمعرفة لنردهما إليه ، فنخرج من اختيارنا إلى طاعته ، ومن معرفتنا إلى هدايته ، وهذا هو فائدتهما . فمن لم يؤمن بهداه و لم يسلم لرضاه فقد خان. ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾[1].

التكليف بما لا يطاق

للتكليف بما لا يطاق معنيان : ١ - ما لا يمكن ، ٢- وما هو صعب وكلاهما واقعان .

أما الأول فعلى وجوه :

(الف) تكليف المنكر على سبيل الأمر بما هو عاجز عنه ، فيظهر عجزه كما قال: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾[2]. ثم قال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾[3].

---

[1] سورة الأنبياء الآية : ٩٣ .

[2] سورة البقرة الآية : ٢٣ .

[3] سورة البقرة الآية : ٢٤ .

(ب) على سبيل الإفحام وإلزام العذاب بعدم الائتمار بما أمـــروا كما جاء في أمر المصورين .

(ج) على سبيل إلزام نتائج أعمالهم السيئة كما قال: ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[1]. ومثل ذلك في الدنيا: ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾[2]. فهم مكلفون بالإيمان .

وأما الثاني أي التكليف بما هو صعب ، فهو أيضا واقع ، وذلك لأسباب :

(الف) للتربية والتأديب ، قال تعالى يعلمنا الدعاء: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ ﴿٢٨٦﴾ ﴾[3].

(ب) إلزاما لنتائج الأعمال السيئة كما حمل اليهود أحكاما شاقة ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[4].

(ج) تعذيبا ، كما جاء كثيرا في ذكر عذاب الدنيا والآخرة .

فإن سألت كيف يوافق هذا بقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴿٢٨٦﴾ ﴾[5]. قلنا هذا بيان سنة الله في حمل الشرائع مطلقا. فإنه تعالى أكرم من أن يظلم عبده فإن الحسنات كلها منه ، كما قال: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ

---

[1] سورة القلم الآية : ٤٢ .

[2] سورة النساء الآية : ١٥٥ .

[3] سورة البقرة الآية : ٢٨٦ .

[4] سورة الأنعام الآية : ١٤٦ .

[5] سورة البقرة الآية : ٢٨٦ .

حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴿٧٩﴾ ﴾[1]. وهكذا يظهر من موقع تلك الآية ونظائرها ، قال تعالى في سورة الطلاق: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾[2]. ولما كان هذا الدين تكميلا جاء على أصل سنة الله وهو أن لا يكلف نفسا إلا وسعها..........

من إفــاداته

التكليف بما لا يطاق له معنيان : الأول أن الله تعالى أمر الإنــسان فوق ما في طاقته . والمعني الثاني أن الله تعالى أمر أمرا عاما يطيقه الإنسان ولكن بعضهم أبطلوا طاقتهم مثلا شربوا الخمر فلا يستطيع الخــير فلــم يسقط عنه الأحكام فهو مكلف بما لا يطيق، أو عمل سيئة فمرض قلبه فلا يهتدي ، فهو لا يسقط عنه التكليف ويحاسب على سيئاته .

(٢) الكسب عند الأشعري هو اختيار ما يريد فيكسب خيرا أو شرا فهو ليس بخالق للأفعال ولا مجبورا في الإرادة .

الإيمان والأعمال

اختلفوا في قدر الأعمال :

١ــ فمنهم من يقول إن الإيمان يمكن أن يبقى مع سوء العمل .

---

[1] سورة النساء الآية : ٧٩ .

[2] سورة الطلاق الآية : ٧ .

٢ــ ومنهم من يقول إن سوء العمل والإيمــان ضــدان فــلا يجتمعان.

٣ــ ومنهم من يفرق فيقول إن الإيمان يضاده العمل السيء على اختلاف درجات التضاد . فبعض القدر من الأعمال السيئة ينقص مــن الإيمان ، وبعضه يبطله . وهذا هو الثابت عقلا ونقلا .

قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾[3]. وهكذا في آكل الربا.

وقد جاء في صحيح البخــاري : " إن مــن الأعمــال ســبع موبقات"[4] وهو استنباط من القرآن .

الــرؤية

هذه المسئلة ليست من المهمات ، ولكن اختلفوا فيها فلا بد من

---

[1] سورة البقرة الآية : ٨١ .

[2] سورة النساء الآية : ٩٣ .

[3] سورة النساء الآية : ١٤ .

[4] ولفظ الحديث فيه : "اجتنبوا السبع الموبقات ....." كتاب الوصايا، باب قول الله تعــالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا ﴾ . رقم الحديث : ٢٧٦٦. ورواه مسلم في كتاب الإيمان، بيان الكبائر واكبرها .

فصل. للرؤية درجات :

١ــ رفع الحجب والأستار كما نرى القمر والشمس ولا نرى إلا ضوءا ، وكذلك لا نرى شيئا إلا بالاستدلال والواسطة ، فبالحقيقة لا نرى إلا ضوءا منعكسا وهو آية على المضيء . فنقول إنا رأيناه . قال تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨ ﴾[1].

٢ــ رؤية الشيء من غير واسطة ، وهي رؤية ضوئه المنعكس على الباصرة. وهذه الرؤية إحاطة بالمرئى وإدراك به. ولهذا الإدراك درجتان : انفعال وفعل، فإدراكنا هو انفعال والله تعالى هو الخالق لبصرنا.

٣ــ وأما الإدراك الذي هو فعل فليس إلا الخلق ، وهو مختص بالله تعالى ولا نعلم به كيف يكون، ولكنا نعلم أن الله تعالى أعلى علوا كبيرا عن الانفعال وأنه يرى كل شيء فإنه عليم وبصير.. وبصره بالشيء هو جعله في محله من المكان والزمان ، وهذا حسب فهمنا القاصر . والعجز عن إدراك صفاته كما هي هو كمال علم الراسخين .

فرؤيتنا لله تعالى بالمعنى الأول لا الثاني ولا الثالث . قال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣ ﴾[2]. فقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ ﴾ دليل على الجزء الأول . المدرك المحيط لا يكون محاطا . ولا شك أنه تعالى مدرك الأبصار فإنه خالقه ،

---
[1] سورة النجم الآية : ١٧-١٨ .
[2] سورة الأنعام الآية : ١٠٣ .

والخلق يلزم كمال اللطف والعلم لا سيما خلق البصر ، فالبصر المخلوق كيف يدركه ؟

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾[1]. إنه تعالى رفع الحجب ، فإن ذلك هو معنى التجلي ، و ﴿ لِلْجَبَلِ ﴾ أي رفع حجابا بينه وبين الجبل . فهذا التجلي دك الجبل وموسى عليه السلام إنما رأى الجبل فخر مغشيا عليه كما قال تعالى: ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾[2].

رفع الحجب له درجات كما تعلم في رؤية الأشياء . وتجلي الرب لعباده ثابت كما قال: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[3].

وآيات أخر تؤول إليه ....(بياض في الأصل).

---

(1) سورة الأعراف الآية : ١٤٣ .

(2) سورة الأعراف الآية :١٤٣ .

(3) سورة المطففين الآية : ١٥ .

البـــاب الثاني

في الـــرسالة

الحاجة إلى الأنبياء

الاحتياج إلى النبي ليس لأن عقل الإنسان كان خاليا عن معرفة الرب والعدل ، بل ليذكره ما قد علم ، وليكون له شاهدان : العقل من الباطن ، والوحي من الخارج ، فيتضاعف السبب إلى الهداية ويتم عليه حجة ربه كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾[2].

فإرسال الرسل فضل منه بعد ما أودع فطرتنا البصيرة التي يفرق بين الحق والباطل . والعاقل يرى تكاثف ظلمات الشهوات، وضلالات العقول ، وتشاكس آراء العقلاء في صلاح النفوس ، فيشكر الله تعالى على هذا الفضل منه ، فيطمئن بهذه ذريعة الخلاص ويتشبث بها ويذعن لها ، فيتمهد له سبيل النجاة ويسلك مجتهدا آمنا مطمئنا . كما أنه يغتنم وجود السلطنة ونفاذ أحكام العدل في هذه الحياة الدنيا ، فتتم بها مصالحه ويترقى بها في التمدن .

فالمنكر بضرورة النبوة مثل بل أسوء من المنكر بضرورة

---

(1) سورة الأنعام الآية : ١٣٠-١٣١ .

(2) سورة النساء الآية : ١٦٥ .

السلطنة ، والداعي إلى هدم أساس المعاشرة والمدنية التي هي مقتضى فطرة الإنسان . ولولا حاجة الصلحاء إلى الأنبياء مثل حاجتهم إلى الملوك، لما رأينا من بدء التاريخ السلطنة والنبوة معا ، فأيقنا بأن في فطرة الإنسان داعية إليهما وذلك لحبه العدل ، ويقينه بالدار الآخرة وجزاء الأعمال ، ويقينه بالإله العادل . ووجود أئمة الضلال والطاغوت لا يثبت عدم هذه الفطرة، كما أن وجود البغاة المفسدين في الأرض على السلطنة ووجود الجبابرة الظالمين على الرعايا لا يستدل به على نفي فطرة العدل في الإنسان . إنما نجعل هذه الأمور كالأمراض ونريد بفطرة الإنسان ما يقتضيه الإنسان حسب صحته ، كما بيناه حين قلنا إن التوحيد هو فطرة الإنسان ....

منشؤ الخطأ

في رأيين باطلين في ضرورة النبوة

طائفة جعلت للفطرة مرتبة فوقها ، فقالت بأنه لا حاجة إلى الأنبياء وطائفة حطتها عن منزلتها ، فقالت بأنه لا سبيل إلى علم النجاة لدنس النفوس وشرها الفطري فلا بد من مخلص

فهاتان إنما وقع نظرهما على فطرة الإنسان من طرفيها ....ولكنا نعلم أن أمور الخلق لا يجري على محض الإمكان والاتفاق ، بل يمن الله على عباده بما يزيدهم قوة على قوة ، مثلا لو شاء لرزقهم برزق واحد ، أو جعل لهم سببا واحدا إلى كسبه ، بل لو جعل لهم عينا واحدة وأذنا

واحدة لكانت لهم كفاية ، ولكنه تعالى من عليهم بنعم لا تحصى ، وفضلهم على كثير من خلقه في أمور كثيرة ، فكذلك جعل لهم في أمر الهداية أسبابا كثيرة وبذلك أتم عليهم النعمة والحجة معا ، فلو آخذهم بمحض الفطرة في الهداية لكان عدلا فإن آياته تعالى ملأت الأرض والسماء ، ولكنه تعالى من عليهم بإرسال الرسل والكتب ، وهذه إحدى وجوه تسمية الشرائع نعمة .... (بياض في الأصل).

من إفاداته

الإنسان مأمور بالحكم فطرة ، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (1). فالإنسان بفطرته مأمور بأوامر الفطرة كسائر الحيوان ، ولكنه ظلوم جهول . وسمى الله هذا الأمر الفطري في القرآن بالمعروف والأمر ، كما قال: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ (2). وقال: ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ (3).

ولهذا الأمر الفطري يؤاخذهم بالإطاعة للأنبياء ، وسمى إطاعتهم إطاعته ، وسمى دينه الفطرة والصراط المستقيم ، وسمى النبي مذكرا وهو الأساس لكل قانون ، فلولاه لم تكن حسنة ولا سيئة وكان الخلق عبثا ، فالنبي صوت هذا الأمر الفطري ....

---

(1) سورة البقرة الآية : ١٨٦ .
(2) سورة الأعراف الآية : ٥٤ .
(3) سورة البقرة الآية : ٢٢٢ .

بعثة النبي دينونة وعلم للساعة

(١) اعلم أن الله تعالى جعل بعثة نبي في قوم يوم حسابهم ودينونتهم ، كما صرح به في القرآن والصحف الأولى ، فبعد البعثة تنتظر غلبة الحق على الباطل. فإن الله تعالى لما جعل الإنسان مختارا ، جعل لظهور اختياره أجلا موسعا حتى يخرج خبايا فطرته. فإذا عتا قوم وأخلد إلى الباطل ثم أوغل فيه ، تم أجل ابتلائه ، فجاء يوم ظهور العدل والدين ، فحينئذ يذهب الله به ويأتي بقوم آخر

وربما يأخذ الأمة الجديدة من ذرية المهلكين ، وهذا مثل ما نرى في عالم الحيوان والنبات لهم أجل فيذهبون ومنهم نسل يخلفون . ولا يؤاخذهم الله على غفلة منهم لرحمته ، حتى يتضرع بعضهم فيباركهم ويجعلهم خلفاء ، وليتم حجته على الباقي .

فإذا بعث الله تعالى نبيا حان يوم حسابهم وتجلى ظهور العدل بعد ظهور الاختيار والابتلاء ، وقد بينا في موضعه أن النبي هو مظهر العدل والدينونة والجزاء . فكان البعثة زمان المطر والربيع ، لا يسقط على الأرض بذر إلا وهو ينمو سريعا ، كأن قوى النشأ قد انتبهت في زمانه ، فإذا جاء النبي: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾[1]. ﴿كَانَ﴾ أي قدر وتحتم ولزم فطرته أن يزهق .

---

[1] سورة الإسراء الآية : ٨١ .

مؤاخذة الله النبي

(٢) ولما كان النبي ظهوره العدل الإلهى وكان بعثته زمان الدينونة، لا بد أن يظهر فيه كمال العدل ، فيؤاخذه الله بما لا يؤاخذ بأشد منه غيره . فعاتب نوحا على شفقة ، وداؤد على تمن ، ومحمدا على رأفة ، وحاسب يونس على حياء ، وسليمان على شغف لعدة الجهاد في سبيله. وذلك ليطهرهم في الدنيا وليعصمهم من الوقوع في سيء وبسط هذه المصلحة في بحث العصمة ، ونقتصر ههنا على ذكر العدل .

قد بينا في موضعه أن الأنبياء فطرتهم العدل ، فكانوا أشد الناس خوفا وتضرعا لقرب مكانتهم ، فكانوا توابين أوابين لشدة إحساسهم بما يخالف العدل ، فكان حالهم جالبا لعناية خاصة من ربهم . فكانت سنة الله بهم حسب استعدادهم ، ثم حسب قاعدة العدل التي خصت بزمان البعثة . فلم يكونوا كأحد من أمته ، كما أن الأمة المبعوثة إليها ليست كسائر الناس ، فهذه تحاسب في الدنيا وهم محولون إلى يوم القيامة . وحال اليهود والمسلمين شاهد على ما قلنا ، والقرآن صرح بذلك ، وبيانه في كتاب ملكوت الله .... (بياض في الأصل)

تعريف النبي وفاتحة أمره

(١) يظهر للمتأمل في أحوال الأنبياء كما جاء في القرآن والصحف الإلهية أنهم لم يكونوا إلا بشرا كامل البشرية ، أفاض عليهم

الرب الفياض المطلق حسب استعدادهم الوحي الجلي البشري. فإنا علمنا من جهة الاستقراء والنظر في أحوال فطرة الإنسان ، وأخبرنا الكتاب الإلهي أن الله تعالى أكرم الإنسان بنفخ الروح القدسي فيه ، فإنا نراه ملهما بوجود الرب الرحيم العادل الديان ، المعبر عنه بقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ ﴾[1]. ولكن هذا الإلهام يغان عليه في النفوس الكثيفة ، وأما الذي كملت فطرته وذكت طبيعته يوقن به إيقانا جليا ، لا يشوبه شك .

فما من نبي إلا وهو موقن بالجزاء والعدل والقسط وينزجر من الظلم وكفران النعمة ، ويجد في نفسه اهتياجا إلى الرحم والشفقة ، والعبودية للإله الحي المنعم وتوكلا عليه . ألا ترى يوسف عليه السلام كيف أوحي إليه بأن ظلم إخوته سيظهر عليهم لإيمانه بالعدل ، ولما رأى شرف نفسه عليهم من قبل وسجدتهم له ، كما جاء في القرآن: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾[2]. وكذلك ترى موسى عليه السلام أنه اهتاج لنصرة المظلوم وهو صبي فوكز القبطي . وهكذا ترى أحوال الأنبياء ، فإذا تيقن بمعرفة الرب الرحيم وعرف أنه مربوب بنعمه ، فحمده وشكره وتوكل عليه في مساقط عدله ، وعلم أن الجزاء حق ، انقطع إليه واطمأن في حجره واستمده في جميع أمره . وهذا ما عبر عنه

---

[1] سورة الفاتحة الآية : ١-٣ .

[2] سورة يوسف الآية : ١٥ .

بقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾[1]. وحينئذ أول حاجة وأعلاها التي يسألها ليست إلا الاستعانة للسلوك في مناهج العدل المرضى عند ربه الذي أجرى عليه العالم بأسره ، فهو الصراط لجميع الخلق صراط الطاعة والعبودية. فليس هذا إلا السلوك في سلسلة عباده الطائعين ، والخروج عن مهاوي الزيغ المبعد عن الرب. فيوحى بما أودع في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ﴾[2]. أي سبيل العدل والحق الموصل إلى الرب تعالى كـما قال: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾[3]. ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝ ﴾[4]. أي المقسطين الذين هداهم الله إلى صراطه . ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ لما أنهم نبذوا الحق بعد العلم وآثروا الحياة الدنيا ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ لما ران على قلوبهم سوء أعمالهم فحرموا العلم أيضا فعموا وصموا كالبهائم .

فهذا هو الوحي الكامل البشري حسب كمال الفطرة الإنسانية، وإنما يسمعه الطاهر المطهر عن ظهر فطرته الذي هـو محـط الـروح القدسي، كما نذكره في الفصل التالي .

(٢) فالنبي إذا امتلأ من الإلهام الفطري زاده الله وحيـا لينـذر الظالمين ، وجعله إماما . فأول تعليمه التوحيد والجزاء . وأصل ذلـك

---

[1] سورة الفاتحة الآية : ٥ .

[2] سورة الفاتحة الآية: ٦ .

[3] سورة هود الآية : ٥٦ .

[4] سورة الفاتحة الآية : ٧ .

الشكر وضده الكفر ، كما بيناه في كتاب حجج القرآن. قال تعالى في سورة المؤمن: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾[1].

(٣) النبي ليس إلا الرسالة ، ولذلك ترى في القرآن يأتي كالبدل للرسالة قال تعالى في سورة الطلاق: ﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولاً يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[2]. وهذا البدل مثل ما جاء في القرآن: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[3]. فجعل فرعون بدلا من العذاب ، كأنه نفس العذاب .

ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها إذا سئلت عن خلق النبي ﷺ: " كان خلقه القرآن "[4]. أي القرآن مرآة لسره . فكل ما ترى في القرآن فهو موافق لخلقه ، كما أن عمل كل صناع تصوير لنفسه . وإنما القرآن وحي من الله ولكن حسبما جعل خلقة نبيه ، فإن كلام الله لا ينزل إلا على من استعد له ، فإنه كالزهرة من النبات ، فتجد الوحي أشبه شيء بحال النبي حتى تظن أنه كلامه ....(بياض في الأصل)

---

[1] سورة غافر الآية : ١٥ .

[2] سورة الطلاق الآية : ١٠-١١ .

[3] سورة الدخان الآية : ٣٠-٣١ .

[4] رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل .

النبي يتعلم ويتربي كسائر البشر ، ولكن الفطرة الخفية فيه تظهر حينا فحينا حتى يفوق سائر الناس ، وهو في ترقيه يأخذ مـــن الطـــرق أحسنها . والعامة يتساقطون فيها عجزا أو يضلون جهلا . فهو في أول عمره وبدء أمره كأحدهم في ظاهر أحوالـــه . ثم يـــسبقهم منـــــزلا فمنـــزلا ، والله يمد كلا بعطائه حسب سعيه وجهده واستعداده . فإذا بلغ النبي درجة خاصة يعلمها الله اجتباه للنبوة والرسالة ، وقد اجتباه في سابق علمه ، وهذا أمر آخر . ثم بعد ما جاء إليه الـــوحي والنبـــوة لا ينقطع سيره بل هو لا يزال يتقرب ويتعرج من درجة إلى درجة إلى مـــا شاء الله في العلم والبصيرة واليقين والتقوى والتوكل ، فإن عطاء الرب غير مجذوذ ......

وهذا الذي ذكرنا أصل راسخ ، دل عليـــه القـــرآن والكتـــب الأولى.ثم يتضح به أمور :

الأول : إنه بفطرته واستعداده وسابق علم الله تعالى ممتاز عـــن سائر الناس . ولكنه في أول أحواله ليس إلا كأحدهم حسب الظاهر .

والثاني : إنه قبل الحاجة والوصول إلى منـــزل لم يكـــن يعلـــم بالتفصيل ما هو الحق ، فإذا وقع أمر تبين له الحق من الباطل .

ثم بعد ما شرفه الله بالوحي الناطق ربما لا يحكم بشيء في بعض الأمور بل ينتظر الوحي . وهذا السكوت والانتظار من صـــحة رأيـــه وتمييزه في أموره ....

حد ملكة النبوة

كما أن الملوك لهم عقل كلي كافل لمصالح الملك بمعرفة ديانة الناس وجودة رأيهم بحدس صائب ، فيتخذون خيار الناس لكل مهمة ، ثم يختبرونهم يوما فيوما ويرفعونهم درجة بعد درجة ، حتى إذا استوثقوا بهم جعلوهم وزراء يعتمدونهم . ثم لهم شمائل بها يجتلبون قلوب الناس وأركانهم ، فيبذلون مهجهم لمرضاة الملك ثم يكون لهم ذكاء في أخذ أحسن الآراء إذا استشاروهم وسمعوا بأقوال أعيانهم . وليس لهم أن يعرفوا جزئيات الفنون مثل الهندسة ومكائد الحرب والمعاملة برعاع الناس .

فكذلك النبي له عقل كلي في أمور جزئية ، فهو يستشير وزرائه في مكائد الحرب والمعاملة بالناس ، ولكنه إذا أسس القوانين الكلية ، أو مهد النواميس الشرعية ، أو دون آداب الأخلاق فينفرد برأيه ووحيه . ولذلك لا ترى في القرآن إلا أحكاما كلية غير آخذة بسفاسف الأمور كجزئيات القصص وأسماء الأشخاص لكيلا يشتغلوا بها ، كما ترى في قصة أصحاب الكهف ويوسف عليه السلام حتى أن محمدا ﷺ أمر بالمشاورة . فليس للنبي أن يعلم مثلا الهندسة والطب (وغير ذلك) ، وليس له التدقيق في مكائد الحرب ومصالح الحرث والتجارة وما يماثلها ، فنازل الأخبار وآيات القرآن على هذا الأصل .

كما روي عن رافع بن خديج قال قدم النبي ﷺ المدينة وهم يأبرون النخل ، فقال ما تصنعون ؟ قالوا كنا نصنعه قال لعلكم لو لم

تفعلوا كان خيرا ، قال فتركوه فنقصت فذكروا ذلك له فقال : إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر[1]. وفي حديث آخر : فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإني إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فإني لن أكذب على الله عز وجل[2]. وفي رواية أنس : أنتم أعلم بأمور دنياكم[3] .

وكما حكى ابن إسحاق أنه عليه السلام لما نزل بأدنى مياه بدر قال له الحباب بن المنذر بن الجموح يا رسول الله ! أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ؟ ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال بل هو الرأي والحرب والمكيدة . قال يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب . ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . فقال رسول الله ﷺ لقد أشرت بالرأي ، فنهض ومن معه من الناس ، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت ، وبنى حوضا على القليب الذي نزل عليه فملئ ماء[4]. ....

---

(1) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره الرسول ﷺ من معايش الدنيا، رقم الحديث : (٢٣٦٢) .

(2) المصدر السابق، رقم الحديث : (٢٣٦١) .

(3) المصدر السابق، رقم الحديث : (٢٣٦٣) .

(4) السيرة النبوية لابن هشام، ٢: ١٩٧-١٩٨ . مطبعة الخير، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٠م .

وكما روي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذ فإنما أقطع له قطعة من النار[1] .

ومن ذلك .... (بياض في الأصل)

المصلحة الملحوظة في فطرة النبي وكلامه

قد جعل الله الأنبياء هداة خلقه ، فألبسهم لباس البشرية ووضع فيهم العواطف من الرحمة والغضب ، والحسرة والتألم ، وضيق البال والندامة ، والقلق وإحساس الخطيئة ، والتوبة والتضرع ليكونوا موافقين لأتباعهم فيتأثروا بهم . ولو كان النبي كالملائكة خاليا عن العواطف لم يؤثر فيهم قوله ، لكونه كأخبار محض لا يصحبه سطوة أو جذبة ، وهكذا المصلحة في لسان الوحي . فتريك ربك فرحا راضيا ، غضبان عاتبا منتقما ، لكي ينتفع الناس بكلامه وإلا بعد عن فهمهم . فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝ ﴾[2]. وأما أن بعض الأنبياء كان أشبه بالملائكة كيحيى عليه السلام فلم ينتفع به الناس إلا قليلا وما جاء إلا إتماما للحجة كما

---

[1] أورده البخاري في كتاب الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين .

[2] سورة الأنعام الآية : ٩.

جاء عيسى عليه السلام ....

ومن غاية رعاية المخاطبين في كلام الوحي ربما يصرف الكلام عن سننه وهكذا يفعل كل بليغ حكيم ، وهذا باب عظيم.

ولكن الأمر المهم ههنا أن الوحي أكبر همه وصف الرب والنظر إلى جهة واحدة منه يملأ القلب ويسطو عليه فيذهل عن الآخر . فلا بد من كشف القناع على قدر لا يزيغ قلوبهم ويدهش أحلامهم .

تأمل قوله تعالى: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴿٧﴾ ﴾[1]وقوله تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴿٣٠﴾ ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾[4]. ففي هذه الآيات رعاية للحقيقة كشف عن صفة الرب من الرحمة العامة وعلوه عن نسبة الغضب والعبوس . فليس من أسمائه تعالى إلا ما يدل على الرحمة ، كما قال: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾[5]. ومثله آيات كثيرة . ومع ذلك رعاية لأحوالهم خاطبهم بالقوارع والزواجر ، لكيلا يغتروا فيلقوا بأيديهم إلى البوار ، فإنه تعالى مع كمال الرأفة هو الحق الصريح ويحكم

---

(1) سورة الفاتحة الآية : ٧ .

(2) سورة الأعراف الآية : ٣٠ .

(3) سورة الإنسان الآية : ٧ .

(4) سورة الإنسان الآية : ١٠-١١ .

(5) سورة الحجر الآية : ٤٩-٥٠ .

بالقسط ، فلا يعلم إلا الحق ولا يفعل إلا كما هو يعلم ، وبـ طه في موضع آخر ....(بياض في الأصل)

من إفـــاداته

النبي يبعث في قوم ليصلحهم ويدعوهم إلى الصراط المستقيم ، فلا بد أن يكون مثلهم في الزي والشمائل ، وإلا كان خلاف حكمة البعثة ، كما قال: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ (أي النبي) مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1]. ومن ذلك علمنا أن أجدر الناس بالنبزة أقربهم خلقا بالقوم المبعوث فيه وإلا تنفروا كل النفرة ، ولو لا رعاية هذه الحكمة لما أمر الله الأنبياء أن يخاطبوا الأمة بلين القول وبالغه .

ومع ذلك لا شك أن النبي على بعد شاسع من ذمائم أخـــلاق الأمة ، حتى أن العلماء بالغوا في صفة سوء أحوال الأمة لكي يظهـــروا حاجة النبي وعظمة أثره ، كأنه إكسير قلّب النحاس ذهبا ، أو سحاب أحى أرضا هامدة . وهم أصابوا في ذلك لولا إنهم تركوا طرفا عظيمـــا منه وهو مشابهة النبي بأمته في محاسنهم ....

النبي وأمته والمماثلة بينهما

(١) ما من نبي إلا وهو سلالة قومه وخلاصة عنصرهم ، كمـــا تخرج زهرة من غصن شجرة أو جوهرة من بطن حجر . فهو جـــامع

---

[1] سورة الأنعام الآية : ٩ .

لأشتات محاسنهم ، طاهر عن أدناسهم . فإن لكل قوم محاسن ومساوي مختلفة كما ترى ذلك في أنواع خلق الله تعالى ، وهذا هو أقــرب مــن سنن الفطرة كما هو أولى بالحكمة ، ولذلك ترى النبي يسبق إليه مــن قومه أكرمهم وأطهرهم . ومن ههنا فضل السابقين من المؤمنين ، كأن الله تعالى أطلع نورا من الأفق ، فأشرق أولا أعلى الشواهق ثم الأقــرب فالأقرب . أو أنزل ماء من السماء فاخضرت من الأرض أولا أخصبها. فهكذا تتنبه الأمة في ذات نبيها ، ثم في ذوات الـصديقين والـشهداء والصالحين منهم وأتباعهم. فإذا كمل وتم زمان النماء جمع الحب وألقى العصف في النار .

(٢) ومن ههنا تبينت لك حكمة الصبر الشديد للنبي وأصحابه لكيلا يبقى في الكافرين والمنافقين من فيه مثقال حبة من الإيمان ، فــإذا محص الله المؤمنين أهلك الكافرين . وفي هذا التمحيص أيضا يخرج مــن بين المؤمنين من دخل فيه بغير نــور، وصرح بذلك القــرآن في غــير موضع ، وتفصيل منه في باب المعجزات .

(٣) فإذا كان النبي سلالة قومه كان هو وقومه كمرآتين على جانبيك ، ترى بعضهم في بعض. فإن رأيت أن النبي على غاية علو الهمة وسعة التدبير ، تيقنت أن قومه أحرار أذكياء ، وهكذا إن علمت من قومه أحسن أخلاقه ، تيقنت أن نبيهم جامع لها . وهذا يعطيك مفتاحا لفهم سيرة أمة ونبيها ، فتستدل من بعضهما إلى بعض . ثم تستدل بذلك في فهم شريعة أمة ، لأنها تنــزل حسب استعداد الأمة كما قال تعالى في سورة الـمائدة بعد ما ذكــر إنزال التوراة والإنجيل والقرآن:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ ﴾[1] حسب عموم سنته كما جاء في آخر سورة الأنعام: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ ﴾[2]. فلا يبتلي الله الأمة إلا فيما آتاهم ، فلذلك جعل شرائع كل أمة حسب حالها ، ومن هذه الجهة اختلافهم ، وجاءت أكمل الشرائع لأكمل الأمم .

وجوب طاعة النبي على الأمة

(٤) مما مر علمت أن النبي هو القلب الحساس لقومه ، فهو منهم بمنزلة السمع والبصر والفؤاد . فكما يجب على الناس إطاعة نور قلوبهم، فكذلك يجب على جماعتهم الطاعة لنبيهم، وكما أن الفاجر يخالف نور قلبه ويطمع شهواته مع علمه بفجوره ، فكذلك الفجار يعصون النبي مع معرفتهم بصحة رأيه ونصحه ومودته . وقد صرح القرآن والخبر الصحيح بأن الكافرين كذبوا بما استيقنوا به ظلما وعتوا................ (بياض في الأصل)

نزول الوحي بكلام مسموع

(١) هل وقع بك أنك نسيت اسما أو شيئا وتريد ذكره وكنت

---

[1] سورة المائدة الآية : ٤٨ .

[2] سورة الأنعام الآية : ١٦٥ .

علمته ، فما ذا تصنع ؟ ألا ترجع بفكرك إلى باطنه وتصمم إرادتك المحض ؟ فتأتيك بالخبر قوى الفكر ولا تعلم من أين جاءت به ، كأنك أرسلت جاسوسا ففتش خزانتك إلى أن وجد ما سألته فأعطاك . فهكذا يفعل من يصنع بيتا أو سجعا، فإنه قبل أن يعلم ما يقول يتوجه إلى باطنه ويصمم إرادته .

وربما يقع أن الفارسي مثلا إذا حاول العربي مع قلة المهارة به ، فأراد أن يؤدي مثلا معنى كلمة نعم ، فيسبق على لسانه " بلى ". فما ذلك إلا لأنه متوجه إلى المعنى ، وفكره متعود بأداء المعنى بلفظ ولسان. فيسبق إلى القول بما لم يرده قائله ، فكان فيك متكلما يلقي على لسانك قولا ولك إرادة محض . وأوضح مثاله في ارتجال الخطب والشعر ، فإن الخطيب فيها كالبئير الجموم لم يقل قولا إلا جاء من وراءه قول آخر من الاستدلال والجواب والتمثيل، حتى أنه من جرب عن نفسه هذا الأمر لا يفكر قبل الوقت ، فإن الوقت له أكبر استجماما واستفتاحا . ولذلك قال المسيح عليه السلام لحواريه : " لا تفكروا ما تقولون إذا دعيتم إلى الأمراء والجبابرة ، فإن في ذلك الوقت يؤيدكم روح القدس"[1].

وربما يرى المحموم في منامه أنه هائم عطشان في مفازة ، فيرى غديرة من بعيد فيسرع إليها ، فلما وصلها فإذا هي آل يلمع . فالعطش ذكر لتخيله ما علق به اعتياده . فكما أن فيك مصورا فكذلك فيك

---

[1] واللفظ في إنجيل لوقا ١٢: ١١-١٢: "ومتى قدموكم إلى المجامع والرؤساء والسلاطين فلاتهتموا كيف أو بما تحتجون أو بما تقولون . لأن الروح القدس يعلمكم في تلك الساعة ما يجب أن تقولوه" .

متكلم ، فربما نسمع في منامنا كلاما طويلا ونفهمه ونجيبه ، وربما نسمع شعرا أو خطبة بليغة ولا قائل لما نسمع إلا باطن فكرنا .

(٢) فإن تصورت هذه الأمور وتأملتها أيقنت بأن الكلام ينشأ في باطن الفكر ، وأن المتكلم ربما لا يريد إلا إرادة ساذجة ، فتتحرك فيه قوى الحفظ والتخييل والترتيب ، فيصنع له كلاما أو يتلو عليه بكمال الصحة كلاما قد حفظه ، وهو يتفكر أمرا بعيدا ولا يشعر بما يقول .

والحاصل أن للفكر عملا مرتبا وراء الشعور ، وأن بين الإرادة وظهور الفعل أعمالا خفية كما أنك إذا أردت الأكل والمضغ ، تحركت عضلات وأعصاب وعظام ولسان ، وأنت لا تشعر بها ولا تريد إلا إرادة محضا ، ولذلك ربما تعض لسانك حين المضغ . فكما أن ههنا حركات الأعضاء ، هناك حركات القوى العقلية من الخيال والحافظة ، ولا يخلو أحد منهما عن عمل العقل والجسم معا

(٣) إن الأعمال سواء كانت جسمية أو عقلية كما أنها تخرج من الباطن إلى الظاهر ، فكذلك بعد التعود والتمرن تتدرج من الظاهر إلى الباطن ، فإن العادة والتمرن يسوقها إلى وراء الشعور . فكل عمل في أول أمره يحتاج إلى همة وتوجه أكثر مما هو يحتاج إليهما بعد التمرن، وتقل هذه الهمة حتى كأنها غابت ولم تغب إلا عن الشعور ، لأنها تخطت وراءه وهناك محل الإرادات ومنبع الأفعال . فكل عمل صار ملكة تدرج من الظاهر إلى الباطن ، فتريد إرادة وتجد الأفعال كالنتائج ، ولا تشعر كيف عمل فيها باطن قواك . ومع ذلك هذا الباطن يأخذ مما

هو مخزون في باطن فكرك .

(٤) منبع الإرادات ربما يكون مسقطا للوحي وروح القـــدس ، فيعمل في الباطن كلاما آخذا بما عنده من الكلمات والصور المخزونة ، والرجل لا يحس بهذا العمل ، فيسمع كلاما في لسان قومـــه حـــسب أساليب كلام تعود به ، ولكن الروح الزكي القدسي الذي يوحيه يسد أبواب الهوى ، ولا يأخذ من خزانة علمه إلا ما صلح لأمره ، كمـــا أن البذر الطيب يأخذ مـــن الأرض الطيبة أحسن ما فيه ، فيريك الأزهـــار الطيبة ، وكما أن النحل تأخذ من الأزهار والثمرات ما طاب ويشفي ، أو كما أن النار تأخذ بعود طيب فتصعد منه ريحا طيبا .

(٥) مما قلنا أنتج لنا أمران : الأول أن الكلام المقدس العلي لا بد له من قلب طيب مبارك ، ولذلك نرى الفرق العظيم في ما أوحـــي إلى الأنبياء حسب علو مدارجهم في الاستعداد وحسب أخلاقهم (انظـــر خلق الأنبياء) .

والثاني أن الكلمات والألفاظ تكون حسب ما في خزانة فكر من يوحى إليه ، وترتيب الكلام ليس إلا من باطنه الذي تحـــت تـــصرف الروح المقدس . وهكذا الأمر في الرؤيا الصادقة ، فلا يرى فيهـــا مـــن الصور إلا ما تعود به صاحب الرؤيا ، ومع ذلك ليس فيهـــا شـــيء إلا بإذن الله ورضاه . فالتمثيلات والتشبيهات وسائر أساليب الكلام تجري على منهج اللسان الذي أوحي فيه .

والحاصل أن الوحي لا يلقى إلى النبي لسانا أو كلمات بعيدة عن

فكره إلا نادرا والحكمة خاصة كما ترى في قصة بيلشاصربن بختنصر ، أن يدا ظهرت من الغيب وكتبت على جدار قصره كلاما لم يفهمه أحد إلا دانيال النبي . فنرى في الكلام المنـــزل في أزمان متباعدة تفاوتـــا في الأسلوب غير ما اقتضته رعاية حال المخاطب ، كما نرى فرقا في كلام المصنفين إذا تباعدت أوقات التصنيف ، وهذا الفرق غير مخالف لكونـــه من وحي روح القدس .

(٦) مع هذه جهة الاختلاف في لسان الوحي من اللغة والأسلوب لا ترى الاختلاف في الأصول ، وذلك يدل على أنه من عند الله تعالى ، سواء نزل على موسى أو عيسى أو محمد عليهم الصلوات ، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[1]. ولذلك يصدق بعضه بعضا ويشيد الواحد الآخر . فالحكيم يأول الكتب المقدسة بعضها إلى بعض ويفهم بعضها من بعض . وفي تفسير آيات القرآن يعض على آياتها بالنواجذ ويقدمها على غيرها ، لكونها قطعية ومن جنس واحد .

فقد أخطأ من زعم بأن اختلاف الأسلوب لاختلاف أحوال النبي ، وأنه لو كان من الله لكان على أسلوب واحد . ألم ير في صنع الله ألوانا وصورا وطبائـــع مختلفة ؟ كما قال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[2]................(بياض في الأصل)

---

[1] سورة النساء الآية : ٨٢ .

[2] سورة الروم الآية : ٢٢ .

موافقة الوحي المسموع بما أودع الفطرة

كلام الله المسموع يأتي النبي بعد إصلاح قلبه ، كما أن البذر يلقى في الأرض بعد إصلاحها ، وذلك تأويل شرح صدر النبي وغسله . ولذلك ترى في قصص الأنبياء أنهم أعطوا الوحي بعد ما أعطوا بينة وبصيرة من ربهم ، فالنبي يعلم الحق من الباطل ، ثم يأتيه الوحي من الله شاهدا على ما ظهر عليه ، كما قال الله تعالى في سورة هود في قصص النبيين: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ ﴾[1]. هذا في محمد ﷺ، ثم جاء في نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾[2]. وجاء في صالح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ ﴾[3]. وجـاء في شـعيب عليـه السلام: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ ﴾[4]. فذكر في هذه الآيات مجيء الوحي بعد البينة ، وعبر عن الوحي بالشاهد ، والرحمة ، والرزق الحسن ، ولهذه التعبيرات شواهد في القرآن والصحف الأولى .

ومما ذكرنا يتبين أمران : الأول أن الوحي يأتي النبي مؤيدا

---

(1) سورة هود الآية : ١٧ .
(2) سورة هود الآية : ٢٨ .
(3) سورة هود الآية : ٦٣ .
(4) سورة هود الآية : ٨٨ .

وموضحا لما يراه فيزداد علما وإيقانا ، وهكذا العقلاء يؤمنون بآيات الله لما هي مؤيدة لما ألهموا من قبل الفطرة قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴿١٢٥﴾ ﴾[1] ولذلك سمى الله آياته ذكرا للناس .

والثاني : أن ذلك لـمن طهر قلبه واتقى الله حسب ما علم من قبل الفطرة كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى ﴿١٧﴾ ﴾[2]. وأيضا: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴿٢٥٧﴾ ﴾[3] فافهم

الـوحي العام

وهو الإلهام اصطلاحا

الوحي لا يختص بالأنبياء بل أكثر الناس يتأثر بالوحي ، وأنـت تجد في قلبك آمرا وناهيا ، والفعل وربما يتشوب بالاثم للجهل ، كما يأمر العادل بالجور حسب شهادة كاذبة ، فهذا جنس عام من الوحي .

ثم يوحي إلى الأنبياء ما لم يعط للناس بطريق الوحي ، وللفرق

---

(١) سورة التوبة الآية : ١٢٤-١٢٥ .

(٢) سورة محمد الآية : ١٧ .

(٣) سورة البقرة الآية :٢٥٧ .

والتمييز يسمون الوحي العام إلهاما ، ولكن القرآن سمى العلم الفطري إلهاما ، حيث قال: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ ﴾[1]

الدلائل على صحة الوحي

مما يدل على صحة الوحي وأنه ليس من هواجس النفس :

(١) إنه يأتيها من الأفق الأعلى من النفس وهو الجانب الإلهي وهكذا العاقل بل الإنسان على الأكثر يفرق بين عواطف التقوى والفجور في نفسه .

(٢) وإنه أحيانا يأتيها من طريق أرفع من علمها كما نرى في الرؤيا ما لا نعلم معناه ، مثلا رأيت مرة أخا لي وكان شابا قائما بين يدى ، وثنينه العليا اليمنى سقطت وأنا أنظر إليه ، فتأسفت على ذلك وكنت بعيدا منه ، فبعد أيام جاءني نعي ابنه الوحيد المحبوب ، ولم يخطر ببالي هذا الأمر قبل الرؤيا ولا في الرؤيا .

(٣) وإنه في بدء الأمر لا يأتي إلا بغتة من غير رجاء ولا تمن. كما نرى في أمر موسى عليه السلام وفي أمر نبينا عليه السلام فإنهما لم يتمنيا للنبوة كما نعلم من ضيق بالهما بما حملا .

(٤) وإنه يأتي بكشف جلي يعطي اليقين مثل يقين يصحب سائر الحس .

والدليل على الأمر الثاني والثالث والرابع قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ

---

[1] سورة الشمس الآية : ٨ .

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴿٥٢﴾ ﴾[1]. وأما الشك من النبي فما هو إلا شك الناقد ، وهو دليل على كمال العقل والحزم والتقوى في ذات الرب تعالى .

(٥) وإنه يأتي النبي بسطوة قاهرة آمرة . قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ ﴾[4] وهذا كما ينبعث في نفوسنا من أوامر التقوى ....(بياض في الأصل)

أول تعليم الوحي

أول أمر النبي أنه يعلمه الله تعالى بالتوحيد والصلاة والعدل والإنابة إليه ، وبـــذلك يطـــمئن قلبه ويوافق الوحي بـــما تطلب فطرته ، قال تعالى: ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ

---

[1] سورة الشورى الآية : ٥٢ .
[2] سورة العلق الآية : ١ .
[3] سورة المدثر الآية : ١-٧ .
[4] سورة المزمل الآية : ١-٢ .

هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾[1]. فعلمه التوحيد والجزاء وثبته على الصلاة على معاداة الكفار . وهكذا في أمر إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾[2]. فكذلك أمر النبي أولا بالصلاة بقوله: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾[3]. فأمره بالصلاة من جهتين : جهة نعمة الخلق ، وجهة نعمة الهداية . وبقوله: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ ﴾[4] دل على المعاد ، وبباقي السورة ثبته على الصلاة على رغم الطغاة . وبمثل ذلك نزل تمام سورة المزمل إلا الآية الأخيرة ، فأمره بقيام الليل . ثم بعد ذلك أمره بالإنذار في سورة المدثر . والحكمة في ذلك إسماعهم القرآن قبل تخاطبهم ، ودعوتهم بالعمل قبل القول حتى يجلب السابقين أولا .

ثم بعد التوحيد والصلاة أمر بالإحسان ، وبذلك يطمئن قلبه لموافقة هذا الوحي بالفطرة . وليس في جانب الخير إلا ذكر الله والمؤاساة، فالنبي يصلي وينيب ويحسن إلى الخلق ويدعوهم إلى جماع خلال الخير : الصلاة والزكاة ، ويبشرهم وينذرهم بهما ، فإن خلافهما جماع الشرور والفساد ....(بياض في الأصل)

---

[1] سورة طه الآية : ١٣-١٦ .

[2] سورة النحل الآية : ١٢٠-١٢١ .

[3] سورة العلق الآية : ١-٥ .

[4] سورة العلق الآية : ٨ .

(١) عصمة الأنبياء محل النــزاع ، فاليهود والنصارى أوغلــوا فيه، فقالوا بكل ما تشمئز منه القلوب الــسليمة . وأمــا المــسلمون فالنــزاع فيهم راجع إلى ما يشبه بالاختلاف اللفظي لما أن المسئلة بقيت ملتبسة ، ونرجو أن يتضح الأمر وتتفق فيه كلمتنا بتوفيق ربنــا وبــه تنكشف ظلمة غشيت بعض المدعين وأتباعهم والله ولي المتقين .

(٢) قد أجمع العلماء منا أن الذنب والسيئات قسمان : ذنــب الأبرار ، وذنب العامة ، فكل ما نسب إلى الأنبياء من الخطيئة فهو مــن القسم الأول ، وهذا قول في غاية القوة لو فصل وبين .

فنقول إن العبد مأخوذ بما هو واجب عليه ، فترى الحيوانات غير مأخوذين بأحكامنا . وكذلك الأمم أخذوا بما كتب عليهم ، وهذا أمر ظاهر ، فكذلك الأنبياء مأخوذون بما حملوا ، ومن ذلك العزم والتــيقظ والتثبت على الجادة ، فإن وقعوا في ضعف ثبتهم الله وعــصمهم عــن العصيان .

وأما مــا جاء في ابتداء أمر آدم عليه الســلام حيث قال تعالى: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾[1]. وقال في موضع آخر: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾[2]. فبين أن آدم لم يعص في أكل الشجرة بأنه ارتكب ما

---

[1] سورة طه الآية : ١٢١-١٢٢ .

[2] سورة طه الآية : ١١٥ .

نهى عنه عمدا ، ولكنه عصى بما أنه نسي لضعف في عزمه ، وأصغى إلى الشيطان بعد أن قاسمه أنه ناصح له ، فإذا وجد الفرصة دلاه بالغرور فذاق الشجرة نسيانا . فهذا تأويل ما جاء في سورة الأعراف حيث قال: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

فالظاهر أن آدم عليه السلام لم يفعل ذلك إلا قبل النبوة ، فإنه تعالى قال: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾[2]. وهذه الكلمات عبارة عن إعطاء النبوة ، ألا ترى أنه لا مجال للنبوة حين كان آدم في الجنة < فإن قيل إن النسيان يعفى عنه ، قلت نعم في حق العامة ، أما الأبرار فالنسيان في ما عاهد به الرب ذنب عليهم ، وكذلك الخواطر والحزن ذنب عليهم وقلما يخلو عنه بشر .

وأما المعصية فلم ينسبها القرآن إلى نبي غير ما ذكرنا في أمر آدم عليه السلام ، وذلك لم يكن إلا نسيانا لعهده وقبل النبوة . بل أخبرنا

---

[1] سورة الأعراف الآية : ١٩-٢٢ .
[2] سورة طه الآية : ١٢٢ .

الله تعالى أنه عاصمهم عن الزلات وجاعلهم إماما ونورا وصا..حا للأرض كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ (أي رسله) رَصَدًا ۝ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ۝ ﴾[1]. فالرسل مربوبون بعناية خاصة ، فإن بدا منهم شيء سيجر إلى ضرر اطلعهم ربهم وأثبتهم على جادة الطريق ، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم على نفسه بعض الطعام تطهرا لما زعم فيه ضررا ، اطلعه الله على حقيقة الأمر، وترى كيف جر الأمر إلى أن الناس كفوا عن الحلال ومالوا إلى طرف من الرهبانية . فأحسب النبي كالقبلة والمركز ، فأدنى ميل فيه يجر إلى بعد شاحط في الخلف .

(٣) لا معصوم إلا النبي

لا نريد بذلك أن غير النبي لابد يذنب ، بل إننا لسنا على ثقة من أمر غير النبي ، ولسنا موقنين بأنه معصوم ، فإنا إذا جعلناه كالنبي وألزمنا أنفسنا طاعته في كل شيء ، جعلناه نبيا .

وعلمنا القرآن بأن النبي لايذهب عن الدنيا قبل أن يبين لهم ما هو الصراط السوي ، فإن مالوا عنه باتباع هوى نفوسهم أو طاعة أمير غوي أو قاهر، فلا ذنب إلا عليهم . فإن الله تعالى قد أوضح المحجة وأقام الحجة ، فليس له أن يبعث فيهم في كل زمان رجلا معصوما مربوبا بعناية قد خصها الله برسله .

---

[1] سورة الجن الآية : ٢٧-٢٨ .

وهذه ذمة عظيمة على الأمة لكي يعلموا أنهم مأخوذون بما نزل عليهم ، ولذلك أعلن أبوبكر رضي الله عنه في أول خطبته أنه متبع لما قد أكمله الله ، فلا مجال لأمر مبتدع واتباع في ما يخالف أمر الشريعة ، وكذلك عمر رضي الله عنه استوثق هذه الذمة عن الأمة ، وفرح بأن فيهم من هم قائمون بالقسط وسيقيمون العوج .

فبعد النبي ليس لقائد أو أمير يسوقهم إلى طاعة أمره مطلقه ، إنما أمره أن يأمرهم بمعروف قد عرفوه وينهاهم عن منكر لم يعرفوه ، وقد بين القرآن ذلك بغاية التوضيح حيث قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝ ﴾[1]. فعلمنا من هذه الآية أمرين : الأول أنه لانزاع في ما أمر الله ورسوله ، فإن هذه الطاعة واجبة ، ولكن ربما يقع أن يأمر أولو الأمر بما فيه تنازع . فهذا هو داء لابد من علاجه، فذكر الأمر الثاني وهو أن يردوا القضية إلى حكم الله ورسوله . فأقام قاعدة محكمة وأبطل طاعة غير الله والرسول بالاستقلال . ألا ترى كيف كرر لفظ ﴿ أَطِيعُواْ ﴾ لكي نعلم أن إطاعة الرسول له استقلال من جهة أنه تحت يد الله ورصده وليس كذلك غيره . فتبين لنا أنه ليس لأحد أن يدعي العصمة أو نسلمها له ، وبسط الكلام في كتاب ملكوت الله ، وبينا هناك مفاسد اعتقاد العصمة في غير الأنبياء كما ادعت آباء المسيحيين و براهمة

[1] سورة النساء الآية : ٥٩ .

الهنود . وانظر أيضا كتاب أصول الشرائع .

(٤) جل متمسك من أنكر بالعصمة بعض آيات القرآن التي لم يعلموا تأويلها ، وقصص الأنبياء في الصحف الأولى المخلوطة ، والقرآن أنكر تلك القصص . وأما آيات القرآن فمنها ما قد ذكرناه في الفصل ...... ولكن الآن نذكر أمرا ثالثا وهو خطابهم بما لم يقع منهم سلفا واحتياطا ، وفهمه المنكرون أنه بعد ما وقع منهم عصيان أو زلة، فمنه ما جاء في سورة الأنعـــام: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[1]..............(بياض في الأصل)

من إفـــاداته

مثال العصمة بالتنبيه قبل الوقوع ، قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[2]. فحذرهما عن الرأفة إذا حل على آل فرعون العذاب فيدعوان لرد العذاب، كما كانا يفعلان على طلب فرعون وهو ينقض قوله كل مرة ....

---

[1] سورة الأنعام الآية : ٥٢-٥٣ .

[2] سورة يونس الآية : ٨٩ .

من إفاداته

أول اليقين بحواسنا وفهمنا ، فإن شككنا فيه شككنا في كل شيء، ثم اليقين بالبديهيات وليس هذا بأضعف من الأول ، فإن شككنا فيه شككنا في كل رأي وعقيدة . ومع ذلك نغلط في كليهما ، ولكن الغلط يأتي من حالات وأسباب وعوارض ، فإذا علمنا خطأنا لايكون ذلك باعثا للشك في يقيننا ، بل علمنا أن كذا وكذا من الحالات أسباب الخطأ فقومنا رأيا ونسخنا رأيا وأحكمنا رأيا .

وإذا علمت ذلك فاعلم أن قائد الجيش ربما يخطأ وسيد القوم ربما يخطأ ، فلا ينبغي لتابعية أن يتركوه ، فإن الخطأ ههنا من حالات خاصة لا تبطل مزية فضله وعقله ، فإن أعضاءنا يطيعون رأينا وإن كان الرأي أحيانا يغلط .

وكذلك النبي ربما يرى ما لايراه أحد فيقول شيئا ، ثم ينسخه الله ويحكم آياته، وهذا الخطأ لا يكون كبيرا بل ينشأ من قبل زهده ونصحه لتابعيه فلا يكون خلاف مهمات أمره كما في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾[1] فعلم أن النبي حرم شيئا على نفسه لابتغاء مرضات أزواجه ، وهذا من رأفته وإيثاره ، فنسخه الله تعالى ، فإن الله تعالى يحافظ رسوله في شئونه كما قال: ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾[2]. فإذا تمنى

---

[1] سورة التحريم الآية : ١ .

[2] سورة الجن الآية : ٢٧-٢٨ .

الرسول حقا ألقى الشيطان قولا يشبه الحق فيقبله العامة ، ولكن الله تعالى ينسخه فإنه كتب على نفسه الرحمة ، وقال: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[1].

فالواجب على التابعين . الإطاعة والإذعان واليقين بأن النبي آلة في يد الله تعالى ، وأن النبي لايخطأ في كبير أمره بل يكون خطؤه على جانب الخير والشدة في الدين كما قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[2]. وكما قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ ﴾[3]. وهذا كان من شدة المشابهة بإبراهيم عليه السلام فإنه جادل في قوم لوط كما قال تعالى: ﴿ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ۝ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴾[4] واستغفر لأبيه .

واعلم أن النبي لايخطأ في الوحي عقلا ونقلا ..... (بياض في الأصل) .

عصمة النبي و وجوده أمان لقومه

(١) النبي في ذاته معصوم ، ولكنه يرى في نفسه نوع الإنسان ويسعى لخلاصهم ويحزن لآثامهم ، فهو يحس ما لا يحسه الإنسان ويجتهد لهم وهم ينكصون .

---

[1] سورة الحج الآية : ٥٤ .
[2] سورة الكهف الآية : ٦ .
[3] سورة النساء الآية : ١٠٧ .
[4] سورة هود الآية : ٧٤-٧٥ .

(٢) فالنبي من هذه الجهة أكبر ذنبا لحمله الذنوب جميعا ، ولكنه بعد الجهد وإفراغ ما عنده من القوة يتبرأ ويتطهر من الأشرار ، كما تطهر عيسى السلام يوم وفاته . فالهجرة آخر أمر النبي ، وعند ذلك هلاك الأشرار ...... قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ (فإنك كنت تستغفر لذنوبهم جاعلا نفسك منهم، وإلا كيف يستغفر واحد لآخر، وهكذا في الندامة) وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1]. أي هذا من سنة الله ، فإذا كيف يعذبهم وهم مستغفرون بلسانك ، وهذا كمال الرحمة والتوبة ، إذ يقبل التوبة من فرد من قوم وهم غافلون ، حتى يتبرأ البار منهم ، وهذا إذا خلوا من كل خير ....

الشفاعة

قد أبطل الله الشفاعة المزعومة في آيات كثيرة بدليل إحاطة علم الله ، وسعة رحمته ، وعظمة كبرياءه ، ولكنه تعالى أثبت الشفاعة الصحيحة : وهي أن يستغفر الشفيع مع المستشفع ، و ذلك أصل معنى كلمة الشفاعة ، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾[2].......

---

[1] سورة الأنفال الآية : ٣٣ .

[2] سورة المنافقون الآية : ٥-٦ .

اعلم أن الشفاعة هي في القيامة الشهادة كما جاء كثيرا. والشهادة تكون على أن الناس كيف صنعوا بهم كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾[1].....

وهي في الدنيا الاستغفار لمن جاء تائبا . والاستغفار للغير على اتحاد النفوس بالحب ، فمتى أحب النبي قومه كان من قومه، وذنبهم ذنبه لما يحس به حتى تبرأ منهم ، فإذا تبرأ وآيس قطع حبله عنهم . ولذلك لا يعذبون قبل الهجرة ولذلك تتوجه التوبة إلى النبي ، قال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[2].....

(إن الشفاعة كما مر) هي الشهادة في الآخرة ، وفي الدنيا الاستغفار مع التائب ، (ولكنه تعالى) قال: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ

---

[1] سورة النساء الآية : ٤١-٤٢ .

[2] سورة التوبة الآية : ١١٧-١١٨ .

سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴿٢٨﴾ ﴾[1]. (هذا دليل على بطلان الشفاعة حسب زعمهم كما قال في آية الكرسي) ﴿ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[2].

فالشفاعة بغير إذن الله سوء أدب ، ولذلك قال: ﴿ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾، فكيف يجترؤن ؟

ثم هي تذهب بخوف الله تعالى فإن العاصي يتكل على الشفعاء ، ولا وزن عنده للعدل ولزوم الجزاء ، فلا يتقي الله كما بين ذلك بقوله : ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[3].

ثم هي مجلبة الشرك ، فيعبدون الشفعاء ويحبونهم أشد حبا من الله بل يخافون الله كجبار غضبان ويلوذون بالشفعاء ، فلذلك قال: ﴿ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ ﴾ . والصحابة رضي الله عنهم كانوا يتكلون على الله و يرجون منه أكثر وأشد مما يرجون من النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم الشفاعة كما أنها باب الشرك بالله ، هي كفر بعلمه وقدرته كما يلمع لك مما ذكرته آنفا ولذلك قال تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ

---

[1] سورة الأنبياء الآية : ٢٦-٢٧-٢٨ .
[2] سورة الأنبياء الآية : ٢٨ .
[3] سورة الأنعام الآية : ٥١ .

عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴿٢٥٥﴾ ﴾[1].

وما أحسن ما ذكره الله من طريق شفاعة الأنبياء فقال في شفاعة عيسى عليه السلام عن قومه: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[2]. فحول أمرهم إلى ربهم في العذاب وأخرج نفسه عن الشفاعة لمغفرتهم معترفا بكمال قدرته وحكمته ، كأنه قال إن تغفر فعن حكم خالص لك لم يكن لأحد أن يصدك ويشاقك ولا أن يهديك إلى الأصلح ....

تذكـــرة

قال الله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[3]. لما كانت الشفاعة لله تعالى فهو يأذن لمن يشاء فلا بد من إرضاء الله تعالى أولا لكي تقبل الشفاعة ......

في الشفـــاعـــة

الرسول كما هو مبشر ومنذر من الله تعالى إلى العباد ، فكذلك هو وكيل وشفيع لهم إلى ربهم ، وأول شفاعته إذا أسلموا فيستغفر لهم النبي كما جاء كثيرا في القرآن ، ثم إذا أذنبوا وتابوا فيستغفرون

---

[1] سورة البقرة الآية : ٢٥٥ .

[2] سورة المائدة الآية : ١١٨ .

[3] سورة الزمر الآية : ٤٣-٤٤ .

ويستغفرلهم الرسول . فهو الأمين المعتمد للعباد ، ولذلك وجب عليهم أن يسلموا إليه قضاياهم في ما بينهم ، وإن لم يفعلوه لم يتخذوه نبيا ، ثم هو يشفع لهم يوم القيامة .

فإن الذين جاءوا بعد زمان الرسول ، استغفروا وتابوا فربما يتوب الله عليهم ، وربما حول التوبة إلى شفاعة الرسول وهذا في الكبائر، قال الله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[2]. فالتائب من قريب ، العامل السوء بجهالة يغفرله ، ولا يغفر لمن عمل السيئات ولم يتب حتى دهمه الموت . وسكت عن حال من عمل السيئات بعد العلم ولم يجتنب الكبائر وبقي عليه زمانا ثم تاب قبل هجوم الموت واستغفر الله ولم يكن في زمان الرسول فيستغفر له ، فهذا هو الذي يأذن الله رسوله أن يشفعه يوم القيامة شفاعة خاصة ، وبشرهم الله في الدنيا بقوله: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[3]. أي توبوا إلى الله واستغفروه فإنه هو الغفور ، والمؤمن يرجو الرب ويخافه

---

(1) سورة النساء الآية : ٣١ .
(2) سورة النساء الآية : ١٧-١٨ .
(3) سورة الزمر الآية : ٥٣ .

فيتوب ولايقنط . وهكذا قال: ﴿ وَلَا تَاْيْئَسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْئَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[1].

وفي ما ذكرنا من ثلاث مواقع الشفاعة كلها ليست الشفاعة إلا بعد التوبة والاستغفار من المذنب ، وهذا هو معنى الشفاعة ، فإن الشفيع هو ثانية في الاستغفار ولسانه وهو متوسل به في التذلل والدعاء . وعلى هذا الأصل بنيت الصلاة والأدعية ، فيدعو الإمام ويؤمن المقتدي . وكان النبيون يضمون معهم من الأمة أفضلهم ليشفعوا للأمة ، هذا لكيلا تكون الشفاعة مجادلة ، كما ترى عيسى عليه السلام في آخر تضرعه على جيل زيتون ، وكما ترى محمداً ﷺ في يوم بدر ، فأجاب الله دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضي الله عنه . فنصر الله نبيه وأصحابه حسب وعده وسنته كما قال: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴿٤٠﴾ ﴾[1]. فلم ينصرهم إلا بعد أن أوفوا ذمتهم من الصبر واحتمال الأذى والهجرة إلى الله والخروج من ديارهم وأموالهم وبذل نفوسهم لربهم ، فيومئذ نزل عليهم النصر . و وقع ظهوره يوم بدر ، وبدت مخائله من بدء الهجرة ، ولذلك قال تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا (أي ناصرنا) فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا (أي في يوم بدر ، فانظر كيف جمع الأمرين مع البعد الزماني) وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ

---

[1] سورة يوسف الآية : ٨٧ .

[1] سورة الحج الآية : ٤٠ .

ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾[1]. أي غالب وحكيم ، فإن أخر فلحكمة.

وأما دعوة المسيح عليه السلام فلم يساعده تلاميذه فلم تكن شفاعة ولذلك علم المسيح عليه السلام أن اليهود لا رجاء لهم وقد وقع عليهم اللعنة فرضي بقضاء الله ، فإنه بالعدل يقضي وبالحكمة يرحم . فلا تكون الشفاعة إذا استغنى المذنب وتولى ، ولكن تكون المجادلة وهي ربما تقع من النبي لكمال رأفته حتى يغفل عن رعاية العدل والحكمة ، وهو في ذلك غير ملوم . والآن نذكر هذا الطرف من أحوال النبي .

المجادلة

قد جاء في القرآن والتوراة أن إبراهيم عليه السلام ألح في طلب الرحمة لقوم لوط عليه السلام ، وكذلك ألح في استغفاره لأبيه ، وذكر الله تعالى هذا الفعل منه على طريق المدح . ومع ذلك حكم الله في هؤلاء حسب أعمالهم ، وبين أن هذا الإلحاح منه كان قبل علمه بأنهم أعداء الله فلما تبين له ذلك كف عن الدعاء لهم . وهذا هو المناسب لمقام الأنبياء وعباد الله الصالحين ، فذكر الله تعالى ذلك ليكون لنا أسوة .

ثم بين لنا أن طلب المغفرة لغير المستحق لها لايجدي نفعا في الآخرة فإن الله تعالى يجازيه حسب ما يشهد به أعماله من غير ظلم ، وحسب ما يشهد به رسوله ، ومع ذلك للرسول والمؤمنين أن يستغفروا

---

[1] سورة التوبة الآية : ٤٠ .

استغفارا عاما فيسعد به من كان له أهلا .

وعلى ما قلنا شهادات من القرآن ، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ (أي من الحق) وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾[1] (أي لاتمل عن القضاء بالحق لرأفة بهم كما قال: ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴿٢﴾ ﴾[2]. هذا في حد الزنا ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾ (أي واستغفر استغفارا عاما للتائبين) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ (أي يظلمون أنفسهم ولا يتوبون فلا ينفعهم استغفار غيرهم) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ (أي يسخط) مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ (فليس لك أن تستغفر لهم) يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا (أي يقال لكم هكذا يوم القيامة) فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ (أي ليس للمنافقين مجادل عنهم أو وكيل عليهم ، فلا بد لهم أن يحذروا ويتوبوا ولا يتكلوا على أحد يجادل عنهم يوم القيامة ، كما بين بعد ذلك فقال) وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[2]. .... (بياض في الأصل)

---

[1] سورة النساء الآية : ١٠٥ .

[2] سورة النور الآية : ٢ .

[2] سورة النساء الآية : ١٠٥-١١٠ .

التبليغ

أكبر خلق النبي يظهر من فعل التبليغ ، فإن الله تعالى جعل التبليغ أكبر فرائضهم ، وأكبر التبليغ أن يجتبي النبي الحواري والأصحاب ليكونوا شهداء على الناس ، فتكون سنة النبي ظاهرة ، ويتضح سبيل الحق والسعادة لكافة الناس ويسهل التمييز بين السنة والبدعة . ولذلك انتخب المسيح عليه السلام حواريه وجعلهم شهداء ، ولذلك دعا إبراهيم عليه السلام للمسلمين كما دعا للنبي ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وسنتي ، وقال : عضوا عليه بالنواجذ »[1]. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[2] هذا .

ولما كانت بعثة محمد ﷺ لكافة الناس وكان متمـا للـشرائع ، انتخب أصحابا وأصحاب صفة وجماعة من المعلمين ورسلا إلى النـاس والملوك ، هذا .

ثم بالغ في هذا الأمر حتى جعل للنساء حظا في الصحبة و لم يمكن ذلك إلا بتكثير الأزواج ، فلم ينتخب هذه الطائفة للحسن ولا للمال ، فصرن معلمات لصنف النساء وقد علمن ذلك ، فلم يستحيين من تبليغ

---

(1) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب، رقم الحديث : (٢٤٠٤) .

(2) سورة النساء الآية : ١١٥ .

ما تعلمن من النبي ﷺ . والدليل على ذلك وصف الله أزواج النبي ﷺ بصفات خاصة هي أولى بأخذ الدين ، فقال تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾[1]. فجعل الأبكار آخرهن . ونرى أن النبي ﷺ لم يأخذ من الأبكار إلا من كانت أفقههن وأعقلهن ، فلو اكتفى النبي ﷺ بزوجة واحدة لم تكن له صاحبة من النساء ، وكان تفريطا في التبليغ ....(بياض في الأصل).

الهجرة وإعلان الحرب

تذكرة

ليس للنبي إلا الصبر على الأذى ، حتى ييئس من قومه ، فحينئذ إما يهجر دار قوم أرسل إليهم ثم يأتيه غالبا ، كما جاء إبراهيم عليه السلام حين أغار قومه على ابن أخيه لوط فهزمهم ، وكما جاء محمد ﷺ حين فتح مكة . ولكن النبي لا يقيم ببلدة تركها ، فلذلك لم يقم إبراهيم عليه السلام إلا بدار هجرته ، وهكذا وقع لنبينا ﷺ .

وإما يهجر من أرسل إليهم فيعذبون ، كما وقع بقوم لوط ، ونوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وموسى وعيسى عليهم الصلوات .

ثم لا يهجر الرسول إلا وقد أعلن بالحرب وقطع حبله عن حبلهم . كما ترى في أقوالهم . فقال إبراهيم عليه السلام والذين معه:

---

[1] سورة التحريم الآية : ٥ .

﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ ﴾[1]. فتأمل في هذه العبارة وكلماتها . فإن قول إبراهيم في آيات أخر ليس إلا وجيزا ، ولكن فيه بعض هذه الكلمات ، والقارئ لا يلتفت إليها فلا تظهر له قوتها ، مثلا قولهم: ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ﴾ أبلغ قول العداوة مع أدب يلزم الكرام ، فإن إظهار الغضب منهم لـــيس كما ترى في العامة . وبلاغة هذا مذكورة في بابها .

وههنا المراد التفاتك إلى كلمات الحرب ، فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[2]. وإليه الإشارة في ذكر مهاجرة إبراهيم بعد أن قالوا: ﴿ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾[3]وهكذا أعلن محمد ﷺ بسورة قل يا أيها الكافرون .

وكما أن الله تعالى يعذب القوم المهجور أو يؤمنوا ، فكذلك وعد الله النصر للمؤمنين المهاجرين والفوز في الدنيا . وكما أن للنبي أن

---

[1] سورة الممتحنة الآية : ٤-٥ .

[2] سورة الزخرف الآية : ٢٦-٢٨ .

[3] سورة العنكبوت الآية : ٢٤ . و ٢٦ .

يصبر ويقاسي الشدائد قبل الهجرة ، فكذلك للمؤمنين أن يـ ١٠٠ ، فيستحقوا وعد النصر . والدليل على ما نقول آيات ، جاء في سورة النحل: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾[1]. وفيها: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾[2]. وفي سورة الحج: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾[3]. وفيها: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ۝ ۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴾[4]..............(بياض في الأصل)

المعجزة

طال بحثهم على المعجزة والخوارق واختلفوا فيها ، فمنهم من أنكر إمكانه ، ومنهم من أنكر دلالته على النبوة ، ومنهم من جعلها من لوازم النبوة . مع أن هذه الكلمة بدعة في الدين ، فما جاءت في

---

[1] سورة النحل الآية : ٤١ .
[2] سورة النحل الآية : ١١٠ .
[3] سورة الحج الآية : ٣٩ .
[4] سورة الحخ الآية : ٥٨-٦٠ .

القرآن ، ولا الكتب الأولى ولا في ما روي عن النبي ﷺ ، وظنوا أن لها ذكرا في كلها باسم الآية . فلا بد لطالب الحق في أمر المعجزة أن يترك هذه الكلمة المولدة ، وينظر في معنى الآية ومواقع ذكرها وما يتعلق بها ، ثم يرجع إلى بحث الخوارق والمعجزات ، سيتبين له أن ترك هذه الكلمة أولى ، فإنها تدل على خيال اختلط فيه الحق بالباطل ....

النظر في مفهوم اسم الآية وأمثالها

(١) الآية واسطة بين المستدل وبين المدلول عليه ، فهي ذات جانبين ظاهر على النظر عموما ، ولكن جهة كونه دالا إنما هو لمن يتفكر ويتذكر حثه الظاهر على الباطن . فمن لم يتفكر ولم يتذكر فالآية ليست له بآية ، فهم لم يعرجوا من ظاهرها إلى ما وراءه كما قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[١]. أي أعرضوا عن وجه دلالتها فهم بغفلتهم لا ينتبهون . وهذه الغفلة إنما هي لاشتغالهم بشهوات النفس . فكأنهم ناكسون رؤسهم على الدني السافل ، فينظرون ولا يبصرون ، ويسمعون ولا يعقلون .

وقد أكثر القرآن عن ذكر هؤلاء ، فمنه قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[٢].وأكبر من هؤلاء

---

[١] سورة يوسف الآية : ١٠٥ .

[٢] سورة الأعراف الآية : ١٧٩ .

من أوتي الآية ولكن غلبت عليه الشهوات فأطفأ نور قلبه فسد روح العمل فتقهقر كما قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ (أي اليهود الذين نبذوا الحق بعد ما عرفوه كما قال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[1] نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ ﴿١٧٦﴾ ﴾[2]. فاتباع الهوى وإيثار الدني على العالي هو الداء العضال.

وأما من لم يسلب روح العمل وكانت الغفلة من ضعف قوة الفكر، فهولاء ينتبهون بالذكر، فإما يتفكرون أو يستمعون لمن تفكر وذكرهم بالآيات . وللغفلة أسباب ليس هذا موضع تفصيلها ، إنما المقصود ههنا أن الآية إنما هي آية لمن يتفكر وينتقل من ظاهرها إلى ما وراءه وهذا مما صرح به القرآن كثيرا .

(٢) الآية تنبه العقل والفؤاد كليهما . وسواء عليها أجاءهما من غرفة النظر أم جاءهما من غرفة السمع ، وربما ينبه السمع النظر كما تنادي نائما فيفتح عينيه . وعلى هذا الأصل فالآية المتلوة أعم من الآية المشهودة ، فإن المتلوة كشفت الحجاب عن المشهودة فعرفتك أنها آية ، فصارت واسطة بينك وبين معرفة الآيات المشهودة ، فهذه جهة .

والجهة الثانية أن الآيات المشهودة كما تدل على صفات الرب

---

[1] سورة البقرة الآية : ٨٩ .

[2] سورة الأعراف الآية : ١٧٥-١٧٦ .

من الرحمة والحكمة والعزة والكبرياء والعدل والجزاء ، فكذلك تهدي الآيات المتلوة إلى هذه الصفات تفصيلا وبيانا ، ومع ذلك تعلمك طريق النظر والفكر .

ثم ههنا جهة ثالثة عامة جملية وهي أن في محض إنزال الوحي والهدى لآية بينة على رحمة الرب ورزقه موجبة لشكره والشكر هو جماع الدين كما قال تعالى: ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ الرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ ﴾[2]. ولذلك سمى الوحي رحمة ورزقا حسنا . ثم هي ناطقة بكونها من الرب، فهي آية على أنها هدى من الرب كما جاء كثيرا ، وهذه جهة رابعة .

(٣) ومما ذكرنا يتبين أن الحقيقة الجامعة للآية هي التنبيه والتذكير ، فالآيات المتلوة أعم وأتم لما فيها من جهات التذكير والتنبيه . ولذلك أكثر القرآن من تشنيع الجاحدين بها كما أكثر من تشنيع المعرضين عن الآيات المشهودة ، وكما سمى هذه بينات فكذلك سمى تلك بينات . وهكذا سماهما الذكرى والبصائر ، وهكذا وصف المنتفعين بهما بكونهم أولي الألباب والعقل والفكر . وشواهد ما ذكرناه كثيرة .

(٤) فلا يخفى مما سبق أن القرآن لا يدعو الإنسان إلى الإيمان والعمل الصالح إلا من جهة العقل والبصيرة ، وبعبارة أخرى من جهة فطرته الإنسانية التي قد غفل عنها ونسيها ، فينبهه ويذكره ليرجعه إلى مكنون فطرته التي سماها أحسن تقويم ، ولذلك سمى نفسه ذكرا

---

[1] سورة البقرة الآية : ١٨٥

[2] سورة الرحمن الآية : ١-٢ .

وتبصرة. ولما أنه يهدي الإنسان إلى أصول النظر وأصول العلم والإيقان ، فيسدد فكره ويبني علمه على أساس متين يذهب عنه الشك والحيرة ويبلغه مطمئن اليقين ، فلذلك سمى نفسه الهدى والتبيان والحق والبرهان والبصائر والنور وشفاء لما في الصدور .

(٥) ولما كان دعوة القرآن على ما ذكرنا إلى الفطرة الإنسانية سمى هذا الدين دين الفطرة ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، ولذلك صار واجبا من جهة الخلق والأمر كوجوب الأبصار والسماع والرحمة والحياء . أجرى الفطرة عليها وأمر بها ، فمن خالفه ناقض فطرته وشوه خلقته كمن فقأ عينيه وكسر يديه ، أو تناول مخدرا أو سما فأبطل حسه أو قتل نفسه . فالدين الفطري يأمر وينهى ما تأمر به وتنهى عنه الفطرة. ومن ههنا قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ (أي لا ينبغي أن يبدلوه) ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾[1]. فهذا هو معيار الدين القيم ، وإنما سماه قيما لقيامه على نفسه وابتنائه على أصله الراسخ ، فاليقين به ليس مبنيا على شيء آخر ، فهو الحق المبين .

(٦) تصريح القرآن بأنه دين الفطرة قد ضل به كثير وأخطأوا من وجوه :

(الف) ظنوا أن التبديل في الخلق محال لقوله تعالى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ . وهذا باطل مشاهدة ، فإن الخلق يتبدل ، وكذلك باطل

---

[1] سورة الروم الآية : ٣٠ .

نصا كما جاء في القرآن: ﴿ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ ﴾[1].
وكما جاء في الحديث :" لعن الله الواشمة والمستوشمة....المغيرات خلق الله"[2]. ثم سياق الكلام للنهي عن التبديل ، فلو كان محالا لم يكن محلا للنهي. وإنما هو كقوله تعالى: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ ﴾[3].

(ب) وظنوا أنه كقوله تعالى: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾[4]
وهذا ظن باطل . فإن قوله تعالى: ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ ﴾[5] ظاهر في أن المراد من الفطرة ههنا هي فطرة الإنسان التي ينبغي أن لا يجروا خلافها وإذا هي الدين القيم . وأما سنة الله فهي الطريق المرعية في أفعال الله تعالى هي طريق العدل والرحمة ، وههنا هي نصر أنبيائه وقمع الظالمين إذا بلغوا آجالهم .

(ج) ظنوا أن المراد من سنة الله طبائع الخلق كلها ، فالنار مثلا لابد أن يحرق الإنسان فعادات المخلوقات غير متبدلة . وعلى هذا أنكروا المعجزات وغرهم أقوال من سمى هذه الطبائع سنة الله ، و أول من استعمل كلمة سنة الله في هذا المعنى هم أصحاب رسائل إخوان الصفاء وتبعهم صاحب حجة الله البالغة ، وتأويل القرآن إنما يصح حسب استعماله ...... (بياض في الأصل)

---

[1] سورة النساء الآية : ١١٩
[2] رواه مسلم في كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة، رقم الحديث : (٢١٢٥) .
[3] سورة البقرة الآية : ١٩٧ .
[4] سورة الأحزاب الآية : ٦٢ .
[5] سورة الروم الآية : ٣٠ .

في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾[2]. سنة الله وخلق الله :

فائدة : ينفي الشيء لمعان : الأول بنفي الوجود مثلا: ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾[3]. والثاني بنفي الوجود الحق مثلا: ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[4]. والثالث وهو مثل الثاني بنفي الجملة كقوله تعالى: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾[5]. وكقوله ﷺ : " لا ضرر ولا ضرار "[6].

﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ معناه لا ينبغي لأحد سواه أن يبدله على المعنى الثالث . قال تعالى: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾[7]. فهو يخلق ويبدل . وقال مخبرا عن الشيطان: ﴿ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾[8]. ومن الثالث ما في الحديث : " لا حسد إلا في اثنتين "[9] أي لا ينبغي الحسد وليس من المحمود إلا في اثنتين ....

---

[1] سورة الأحزاب الآية : ٦٢ .
[2] سورة الروم الآية : ٣٠ .
[3] سورة هود الآية : ٤٣ .
[4] سورة البقرة الآية : ١٦٣ .
[5] سورة البقرة الآية : ١٩٧ .
[6] الموطأ للإمام مالك، كتاب الأقضية، باب القضاء في المرفق .
[7] سورة الرعد الآية : ٣٩ .
[8] سورة النساء الآية : ١١٩ .
[9] رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب إنفاق المال في حقه، رقم الحديث: (٤٠٩) .

حد المعجزة

المعجزة ما جاوز حد قوة الإنسان وحيله ، فالآيات معجزة ، ومع ذلك دالة على أمر من الله تعالى . فإن هذا معنى كلمة الآية كما أخبر الله تعالى عن الحواريين في إنزال المائدة: ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا (في ما جئت به من الرسالة من الله تعالى ، فإن أنــزل الله مــا سألناك علمنا أنه تعالى أرسلك) وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[1].أي على غيرنا بما شهدنا وعلمنا من رسالتك) .

وأما المعجزة بمعنى أنها فعل النبي ، فلا أصل لها في الشرع ، إنمـا يظهرها الله تعالى إما على أيديهم ، أو لشهادة نبوتهم ، والقرآن صـرح بهذا وكذلك الصحف الأولى ....

فما كان للنبي أن يأتي بآية إلا بإذن الله ، كما قال تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (أي ما يفصل بيننا ، وكان المراد بذلك آيات العذاب التي كانت الأنبياء ينذروهم إياها) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ

---

[1] سورة المائدة الآية : ١١٣

مِن عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[1] .

فتبين لنا أن المعجزة ليست من عمل النبي ، إنما هي فعل الله تعالى شهادة على الرسالة ، كما صرح به القرآن والصحف الأولى . ولو كانت فعلا من النبي لم تثبت الرسالة بل الألوهية ، ولذلك واجب على النبي أن يظهر أنها ليست بقوته . ...

مغالطة من أنكر بالمعجزات

كونه تعالى واجب الوجود يلزم دوام سنتة ، ودوام الخير ، و دوام الرحمة . وأما دوام الطبائع فلا يصح إلا بحسب دوام رحمته ، فلا يتغير على طريق يضرو يجلب المصائب إلا عند أجل مكتوب حسب الحكمة .

وأخطأ من ظن أن الطبائع من سنة الله ، نعم إيفاؤها إلى تمام أجلها من سنة الله . وهذا الخطأ منهم انجر إلى عثرة كبيرة ، وهي أن خرق عادات الأشياء محال ، فأنكروا بصريح القرآن والكتب السماوية ، وحرفوا النصوص الواضحة إلى الأباطيل الفاضحة ....

الأشياء إما هي منفعلات ، فلا بد أنها تحت إرادة ، فتصرفها عن

---

[1] سورة إبراهيم الآية : ١٠-١٢ .

آثارها إن شاء ، وإما هي فاعلات ، فهن أنفسهن ذوات إرادة . فإن شئن صرفن فعلهن عن شيء فلا إشكال في خرق عادات الأشياء . ولكنهم لما رأوا أن الأشياء لا تتحول عن آثارها ، أيقنوا بأنها خالية عن الإرادة ، فلا بد لهم أن يوقنوا بأنها تحت إرادة مريد . فإن قالوا إن هذا المريد جعل الآثار لازمة كما علمنا من التجربة ، قلنا إن التجربة لا تثبت اللزوم إنما تثبت العموم ....

الحاجة إلى المعجزة

لم يكن نبينا ولا أحد من الأنبياء متهما بالكذب فيحتاج إلى إثبات صدقه ، ولكنه لما أخبرهم عن الجزاء والتوحيد لم يصدقوه ، فوجب إثبات الجزاء والتوحيد لا إثبات صدقه . ولذلك نبههم على الآيات العظيمة الدالة واجتنب عن إظهار معجزة لا دلالة لها إلا بالواسطة . وقلما تعطى المعجزات المطلوبة ليؤمن طالبوها ، إنما ينزل الله هذه الآيات لإتمام الحجة فلا يبقى بعدها إلا إهلاكهم ....

من إفاداته

إن النبي لم يثبت نبوته أولا ، إنما أثبت التوحيد والمعاد وخاصمه الناس فيهما ، وأما النبوة فلا حاجة إلى إثباتها في أول الأمر إنما يخبر عنها ، ويسطع أمرها حينا فحينا ، ويؤمنون بها لإيمانهم بما جاء به النبي.

وإنما يؤمنون بما جاء به النبي بوجوه كثيرة : فمنها حججه ، ومنها صدقه ، ومنها سمو قوله ، ومنها خلق مبلغه ، ومنها ....

من إفاداته

إنما أعطي عيسى عليه السلام المعجزات أولا ، لأنه بعث في آخر النبوات لبني إسرائيل وحين حق عليهم العذاب ، وأما موسى عليه السلام فإن فرعون استحق العذاب لكمال كبره . وبقيت مع بني إسرائيل لقساوة قلوبهم وشدة جهلهم وتصلبهم . وهذه أسباب خاصة ، والأمور العامة التي ذكرناها تتعلق بأحوال سائر الأنبياء .

خُلُق الأمة

ربما يتوهم أن موسى عليه السلام ربى أمته أربعين سنة في التيه ليذهب عنهم اللينة ويجعلهم ذوي حماسة وغلظة ، ولكنك ترى أن موسى عليه السلام يشتكي غلظة رقابهم وعسر انقيادهم وركوبهم ما يشاؤون . وذكر الله من قسوهم في القرآن حيث قال: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾[1]. وصرح القرآن بسرعة قبولهم للباطل حيث عبدوا العجل . فليس كما زعموا بمحض الرأي ، وقد صرح القرآن بأن موسى عليه السلام تركهم يتيهون لما سخط بهم لعصيانهم .

---

(1) سورة البقرة الآية : ٧٤ .

من إفـــاداته

اللينة والتصلب لكليهما قسمان   فاللينة تكون في ضعف الاعتصام بالحق ، وأيضا تكون في التسرع إلى قبول الحق. وكذلك التصلب يكون في الصبر على الحق ، وأيضا يكون في القساوة والإصرار على الباطل . فليس بالمحمود محض اللينة ولا محض التصلب ولذلك قال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1].

الأسباب الـــمانعة للمعجزات

كانوا يقترحون المعجزات ، فمنها ما لا يجاب إليها أبدا ، وهو اثنتان : الأولى ما تكون فوق حال الإنسان كما طلبوا أن يرو الله جهرا، أو ينـــزل عليهم الكتاب منشورا عيانا .

والثانية ما بني على ظنهم الفاسد من قوة النبي وكونه قادرا على ما هو المحبوب عندهم ، مثل أن يكون له كنـــز أو يأتي بالملائكة .

ومنها ما يؤخر ، وذلك لمصلحتين :

الأولى أن يؤمن أهل الفهم والتقوى بالبصيرة .

والثانية أن لا يعجل بالعذاب من لا يؤمن ليتم عليه الحجة .

فهذه أربعة أسباب للإنكار عن الإتيان بالمعجزة ، وقد صـــرح القرآن بكل ذلـــك وإنمـــا ذكرناهـــا إجمـــالا ونتبعهـــا بالتفـــصيل ....(بياض في الأصل)

---

[1] سورة الفتح الآية : ٢٩ .

كون المعجزة دليلا على النبوة

المعجزة أي الآية دليل وبرهان على أمر كما قلنا ، ومما يدل عليه المعجزة رسالة النبي . وصرح بذلك القرآن والصحف والعقل ، قال تعالى بعد ذكر عصا موسى ويده البيضاء: ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1]...

أما دلالتها على النبوة عقلا ، فلأجل أن العقول تنقاد بالمثال وتقيس به (وهذا نبين) . وأما بطريق النقل فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾[2]...

المعجزة آخر الدلائل

لا يعطى المعجزة بخرق العادة ظاهرا إلا بعد ظهور عدم الأثر من غيرها ، فإن بعد المعجزة الظاهرة إما الإيمان وإما العذاب . كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ ﴾[3].

للمعجزة العظيمة الفاصلة وقت وأجل

قد جعل الله لكل شيء أجلا وكذلك للمعجزة ، وربما يؤخرها

---

(١) سورة القصص الآية : ٣٢ .

(٢) سورة الإسراء الآية : ١٠١-١٠٢ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٨ .

الله تعالى رحمة لما علم أن الأمة ستؤمن من دون المعجزات . والحكمة في ذلك أن الهداية تنمو من الفهم والبصيرة بما يعلم النبي . والإيمان بذريعة المعجزة لا يكون إلا تقليدا ، فإن المعجزة لا تدل إلا على أن هذا نبي أرسله الله تعالى ، فيؤمن بكل ما يقول كالمقلد المحض . فإن ألقى عليهم التقليد حرمت القلوب السليمة والمستعده بصيرة تنشأ من الفكر فيما يأتي به النبي كما قال تعالى: ....

والحكمة الأخرى أن المعجزات الفاصلة لا يبقى بعدها إلا العذاب كما مر ، فلا يعطوها إلا بعد ما لم يبق فيهم من يؤمن من طريق الفهم والفكر . والذي لم يؤمن قبل المعجزة قلما يؤمن بعدها قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِۦ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[2].

فالمعجزة فصل وفرقان كالقيامة ، فجعلها الله تعالى غيبا وينتظر النبي فربما يضيق صدره من إجماع الناس ، فيعجل بها ليفصل الأمر ، وربما يخاف على قومه من العذاب الذي على أثر المعجزة ، فيغضب على من يطلب المعجزة ، كما غضب المسيح عليه السلام على الفريسيين وقال :............[3]

---

[1] سورة يونس الآية : ٧٤ .

[2] سورة يونس الآية : ١٠١-١٠٢ .

[3] انظر إنجيل متى ١٢: ٣٨-٤٠، و١٦: ١-٤ .

وبين القرآن واضحا أن الآيات عند الله والنبي ينتظرها كما جاء في سورة يونس: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[1]. أي إن الآية الفاصلة التي تطلبونها لا بد أن تأتيكم إلا أن لها أجلا ، ولا يعلمه إلا الله وأنا انتظرها. ومثله قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾[2] .وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[3]....

الفرق بين الشعبذات والآية

إن الأولى للهو المحض ، والثانية لنعمة ونقمة ، فبالآية يعلو أمر النبي ويغلب على أعدائه . وأي مشعبذ قاد الأمة ورفعها ، بل هم أذل الناس وأفقرهم ، قال تعالى: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾[4]....

الفرق بين السحر والمعجزة أن السحر يؤثر في العواطف السفلى

---

[1] سورة يونس الآية : ٢٠ .

[2] سورة الأنعام الآية : ٥٧-٥٩ .

[3] سورة الأنعام الآية : ٦٦-٦٧ .

[4] سورة طه الآية : ٦٩ .

وينشأ من غير التقوى .

تذكـــرة

هل رأوا من محمد ﷺ آية ؟ قال المنكرون لا وتشبثوا بآيات من القرآن لم يفهموها (نذكر ههنا آيات ونبين معناها) والقرآن ناطق بوقوعها لنبينا ﷺ فمنها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾[1] ....

الاستدلال بالمعجزات

ما علمت أحدا من الأنبياء أنه استدل على مطالـــب الرســـالة بالمعجزات . أما على نفس رسالته فأعطى الله محمدا ﷺ في هذا الأمـــر دليلا مستقيما كما أعطاه صراطا مستقيما . والدليل المستقيم ما يـــدل بنفسه من غير واسطة فآتاه براهين وحججا على مطالب الرسالة . ولما كان مخ تعليمه التوحيد والإسلام الخالص لله تعالى ، فكان طريق تعليمه حسب ذلك . فأظهر عجزه ، وأنه ليس بيده شيء ، ولا لـــه عـــلم بالغيب ، وأنه لا يهدي من أحب ، وأنه يخاف ربه ويعمل بـــين يديـــه كالعبد ، والحكم لربه . وهكذا تجد في تعليم جميع الأنبياء ، وأما عنـــد نبينا ﷺ فأوضح وأكثر .

---

[1] سورة الصافات الآية : ١٤-١٥ .

القرآن معجزة

نحن نؤمن بالاتفاق بأن القرآن معجزة لمن يحاول أن يأتي بمثله ، ولكن العلماء اختلفوا في جهة إعجازه . وعندي وعند أكثر العلماء أن القرآن معجزة لفصاحته وبلاغته. ومعظم استدلال من أنكر ذلك أنه قد أعجز الناس بهدايته لقوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ (أي التوراة والقرآن) أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ﴾ [1]. فقالوا إن جهة الإعجاز هو هداه لا غير. ونقول إن ذلك لا يخالفنا ، فإن الهداية إذا ضمن كلاما على غاية حد الفصاحة والبلاغة كان أهدى وأبلغ إلى النفوس ، فكونه أهدى لا ينافي كونه بليغا على حد الإعجاز.

إعجاز القرآن

التبس على أكثر العلماء جهة إعجاز القرآن ، وما رأيت فيها قولا منقحا ، فبعد ما أجمعت الأمة أن القرآن كلام معجز اختلفوا في تعيين الإعجاز اختلافا عظيما .

فمنهم من يقول إن الكلام مع كونها على أقصى الغاية في البلاغة والحسن ، لا يكون معجزا إلا للنور الذي فيه . فيلزمهم أن ترجمته لا بد أن يكون معجزا ، فليس الإعجاز في صناعة الكلام ، إنما هو في تعليمه

---

[1] سورة القصص الآية : ٤٩-٥٠ .

الدين الكامل والشريعة المتممة .

ومنهم من يقول إن الكلام مع تعليمه الذي هو أكمل الهدايات معجز لأمر ما في بلاغته حتى أن ترجمته لا يكون معجزة ، وهذا هـو مذهب الجمهور من علماء الأمة .

ثم من أصحاب هذا الرأي :

من ذهب إلى أن البلاغة في نغمة حصلت له من تأليف الألفاظ حتى إنك لو وضعت مرادفا موضع مرادف له ذهب عنه الإعجاز ، مثلا في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾[1]. إن بدلت الألفاظ وقلت : " إلا ذكرا لمن يرهب ، " أو في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[2] قلت : " الله على العرش استوى " ذهب عنه الإعجاز .

وما علمت أنهم ينكرون جهة أخـرى للإعجـاز ، ولكنـهم يحسبون النغمة أمرا عظيما ، حتى أن القرآن آثر كلمتين علـى كلمـة لاستكراه صوتها فتجنب مثلا : كلمة الآجر واللبنة والقرمد ، وهذا هو رأى الجمهور العظيم وإمامهم الجاحظ .

ومنهم من قال إن البلاغة المعجزة إنما حصلت له من جهـة أداء المعنى بأسلوب خاص من اختيار تركيب كامل نحـوي....(بيـاض في الأصل) .

---

(1) سورة طه الآية : ٣ .

(2) سورة طه الآية : ٥ .

من إفــاداته

إن الاعجاز...... إنما هو لكماله في البلاغة وحــسن المعــنى وعجيب النظم مع كمال الفــصاحة ولهجتــه العليــا وروح الهدايــة والحكمة..............

من إفــاداته

وجه الإعجاز

(١) يمكن أن يكون في الكلام شيء كالروح ، لا يعرف كنهه ولكن يستدل على وجوده بآثاره من الهدى كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[1]. أي حياة عالية . وكون القرآن ذا أثر عظيم يعلم بالذوق ويؤيده ماروي عن العرب وما علمنا من التأريخ من أثره العظيم ، فهذا هو النور البازغ والبرهان الدامغ ، كما جاء في التوراة في بشارة هذا النبي وفي مكاشفات يحيى عليه السلام .

" ومن فمه يخرج سيف باتر لكي يضرب به الأمم "

(٢) فعلى هذا الرأي لا يمكن لنا معرفة كنه إعجازه غير ما نعرف من آثاره . وأخطأ عبد القاهر رحمه الله وأمثاله فيما زعموا أن الإعجاز في التراكيب النحوية ووجوه البلاغة ، فإن كل ذلك غير معجز .

---

[1] سورة الأنفال الآية : ٢٤ .

(٣) وعلى هذا الرأي فائدة علم البلاغة معرفة منتهى كلام الإنسان بأنواعه وتفاوت مدارجه ، فإذا نظر بعد ذلك في الكلام المعجز تبين له الفرق الواضح ، فعلم أن المعجز شيء مفارق لغير المعجز في الأثر والأخذ بمجامع القلب من غير أن يعرف كنه ذلك وإن كان يوجد فيه أسباب البلاغة .

(٤) وبهذا يجمع بين رأيين مختلفين حسب الظاهر : وهو أن القرآن معجز من جهة لفظه ، والرأى الثاني أنه معجز من جهة معناه . وطريق الجمع أن البلاغة المصطلحة ليست مدار الإعجاز ، ولكن في القرآن بلاغة يعجز الإنسان عن فهم غورها وكنهها ، ولكن يرى أثرها العجيب على الحكماء وأولي الألباب .

(٥) ومع ذلك ترى محاسنه المعنوية واللفظية لا تنقضي على استفراغ جهد الحكماء والبلغاء ، وهذا كما تجد في الفطرة والآيات المشهودة في الأرض والسماء ....

جهات مختلفة من البلاغة وتعريف الإعجاز

أراد أرسطو أن يبين في الخطابة كيف يثبت الدعوى ويحض الناس بذكر المؤيدات والمحاسن ، فهدى إلى مادة البلاغة ، وأراد أن يبين في الشعر محاسن الكلام من التشبيه والمجاز ، فهدى إلى صورة البلاغة .

وأما الجرجاني رحمه الله فجعل البلاغة أمرا صوريا ، وذلك بذكر أدوات التأييد والتقديم والإنشاء ، وأدخل المحاسن الشعرية في أسباب

الإثبات والتحريك ، فلم يفرق بين الأمور المادية والصورية .

وترك أرسطو وعبد القاهر كلاهما أصل الكلام وجوهر معناه ، ثم تركا نظم المعاني وتركيبها حسب العواطف والحكمة واستعداد السامع لقبول الحكمة .

ثم في نظم المعاني وتركيبها .... معظم الفرق بين الصادق والكاذب ، والقائل والمتقول ، فإن المتقول يلتقط أجزاء الكلام من ههنا وههنا ويلفق منها قولا فيه محاسن شتى . ولكنه لا يعلم كيف يركب بعضها مع بعض ، لأن ذلك لا حد له ولا يحصى . وإنما يعرفه الطبع ولا يهتدي إلى أسبابه ، والعلماء يخطئون كثيرا في تعيين الأسباب ، مجرد الاجتماع لا يدل على السببية ....

فظهر أن معظم البلاغة والإعجاز في الكلام هو نظمه وتركيبه في الصوت والمعاني كليهما ، وكذلك في تركيب أشتات العواطف والمحاسن ، وفي مقدار التركيب . ومثال ذلك في الكيميا وخلق كل شيء ، فإن الأجزاء المحض لا تكون شيئا ، بل وضعها على ترتيب خاص ، ومقدار خاص ، وعلى فصل ووصل متناسب. فإذا اجتمع هذه الأمور على أقدارها ، أفاض الله عليه صورة ذات سيرة وطبيعة خاصة وأثر و روح ، وإنما يعلمه السامع بمحض تأثره ويهتدي إليه القائل بمحض صدقه ، وصدوره عنه من غير تصنع وتقول. فإنما يأتي به الطبع فطرة من غير علم به ، فصاحب الكلام الصادق يتلقاه من فطرته .

فإن كان الكلام قدسيا فقد أخذه من جانب القدس ، وإن كان

بشريا فقد أخذه من عواطفه كالعشق والفرح والحزن والشكر والشكاية. وإنما يعرف صدقه من يتأثر له ، لشركته في مادة العواطف ، فمن فيه مادة عشق يعرف كلام العاشق ومن فيه مادة حزن يعرف كلام الحزين . وهكذا من فيه طهارة ونزوع إلى القدس يعرف كلام القدس ، فإنه يتأثر له فيحيي جامده ويورى خامده . ولذلك قال تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾[1] . وقال تعالى: ﴿ ۞ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ ﴾[2]. ولا يؤثر المطر في صلد فكذلك لا بد من استعداد وهو حب المكارم إما بالفعل أو بالقوة .

وإنما كان القرآن معجزا للعرب لما أنهم تأثروا له ، فإن العرب على علاتها كانت على سذاجة الفطرة ، وحب المعالي من الجود وصلة الرحم والغيرة والشكر ، لا سيما شرفاؤهم وخيارهم ، حتى أن سيئاتهم نبعت من الخيرات. فمعاقرتهم الخمر ، ومقامرتهم الميسر جاءت من الجود . وحروبهم من أداء حق المقتول والغضب للقسط ، وظلمهم من إباء النفس عن الدنية . ولذلك رحموا الضعفاء والأرامل ، ولم يقتلوا في الحرب الإماء ولا الأطفال ، ولم يرهقوا المنهزمين . وإنما بقوا على الفقر وسوء العيش لإبائهم عن الطاعة لملك يجمع أمرهم ، إلا من لا يتكبر عليهم ويعدل بينهم ويكون كأحدهم ، كما كان الشيخان وذوو أمرهم في الجاهلية . فأملكهم وأقهرهم أعدلهم ، كما كان عمر بن

---

[1] سورة البقرة الآية : ٢ .

[2] سورة البقرة الآية :٢٦ .

الخطاب رضي الله تعالى عنه فلم يرد إلا أنه يقهرهم بكمال عدله .....

والقرآن دعاهم أولا إلى هذه المكارم التي قد عرفوها ، فتأثر له ذو النهى منهم لصدقه في الدعوة على المعالي ، حتى إذا دانت له جماجمهم بين لهم أن هذا الكلام لا يكون إلا صدقا ، وكونه صدقا هو كونه قدسيا وهدى ونورا ، فلا يقدر عليه كاذب ، بل يكون إيحاء من جانب القدس . ولذلك لم يجئ التحدي به في أول الدعوة حتى علموا أثره .

وكونه أهدى هو أثره الذي أحيى أمة تشتتت أركانها ، وتهدمت بنيانها ، وبعدت عن المدنية لشدة إبائها وحميتها وصعوبة قيادها ، كأن القرآن أخرج أمة متمدنة من الأسود الضارية قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[1].

والعرب قد جربوا ذلك وعرفوه في أنفسهم ، وأئمتهم وذوو العقول والتدبير وأولو الأمر والنهى منهم أعلمهم بعجزهم عن تحويل العرب إلى التمدن . وقد أعجزوا الأمراء إلا الشيخين ، وعادوا عن قريب إلى بغيهم وتطاول بعضهم على بعض ، وهم إلى الآن على حالهم قانعين بفقرهم وبؤسهم ، مفتخرين بحريتهم القديمة ، إلا الذين شربوا من التمدن الحديث الذي هو هلاك بني آدم ...(بياض في الأصل).

---

[1] سورة الأنفال الآية : ٦٣ .

من إفـــاداته

زعموا أن الله تعالى أعطى العرب كتابه وأرسل إليهم الرسول لما بلغ كفرهم وسوء أعمالهم منتهاه ، هذا حق . ولكن لا بد فيـــه مـــن زيادة: أن الله تعالى بعث فيهم رسولا منهم ، واصـــطفاهم لـــصدقهم وأمانتهم ومكارم أخلاقهم ، وكانوا أرغب في خلال الخير . (وهـــذا بحث طويل و دلائله في تاريخهم والحديث).

وكانت العرب على غاية قصوى في تأثرهم بالكلام وهذا لقوة قلوبهم وقولهم حسب تأثرهم ، فكان كلامهم يحمل روحا منهم وكان السامع يتأثر له من وجهين : ١ـــ من قوة المتكلم ، ٢ـــ ومن اعتيادهم بالتأثر ، وقد قيل : القول إذا خرج من القلب وقع في القلب .

وسذاجتهم وصدقهم نفى عنهم الخواطر وتشتت البال وصرف القول عن نهجه الصادق ، فكان قولهم وسمعهم من القـــوة والإصـــابة كضربة سيف مرهف . ولولا كلامهم جماع همتهم لما ارتجلوا بقـــصائد طويلة دامغة ، فكانوا أصدق الناس وأنطقهم ....

من إفـــاداته

خلتان فضلت بهما العرب على سائر الناس :

١ ـــ الصدق ، ٢ ـــ والجود .

فالصدق بناء العبادات ، والجود بناء المعاملات ، ويعـــبر عـــن

الأصلين بالصلاة والزكوة . ألا ترى كيف كانوا يمدحون بهاتين الصفتين قال صخر أخو الخنساء يرثي أخا له :

وطيب نفسي إنني لم أقل له كذبت و لم أبخل عليه بماليا [1]

لم جعل القرآن معجزا كافيا لهذه البعثة الكبرى

كانت الأمة السابقة تدعى بوسيلة الإيمان بنبيها ، ثم تعطى لها الشريعة فيؤمنون بها تقليدا ، ولذلك لم يستقيموا وكثر نكصهم على أعقابهم ، وهكذا يكون أمر التقليد . فلم يزالوا محتاجين إلى نبي آخر ليقلدوه ، حتى جاءت هذه البعثة ، وخاطبت قوما حرا ، ما لانت رقابهم لمستعبد في دنياهم ، كما شهدت به التوراة والتأريخ وأشعارهم فحرى بهم أن لا يستعبدوا في عقولهم ، فلم يطلب منهم تقليد وإيمان بالكره . فلذلك ترى القرآن يدعوهم إلى الإيمان بأمور الدين من التوحيد والقيامة ومحاسن الأخلاق ، حسب ما ظهرت لعقلائهم وأقرت بها حكماؤهم . ولم يخاطبهم بطريق إظهار المعجزات ، فآمنت به ذوو العقول الراجحة والأخلاق الفاضلة ، حتى بقيت عامة الناس وأشرارهم ، وهما الطائفتان اللتان تطلبان المعجزة . فلا ترى ذكر إعجاز القرآن في أول الدعوة ، ولم يطلب المعجزة أحد من السابقين . وإذا تأملت القرآن كيف يجيب الطالبين المعجزة ظهر لك صحة ما قلنا

١ ــ قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

---

[1] ديوان الحماسة لأبي تمام، ص: ٣١٤. تحقيق الدكتور عبد المنعم احمد صالح، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠م .

ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾[1]. فلا يحتاج إلى آية أخرى ، وإذا آمنت به علماؤهم فليس للباقي إلا اتباعهم ، وشهد التاريخ من أول الإسلام إلى يومنا أن السابقين من كل أمة إلى الإسلام ذوو النهى والعلم منهم . ولو احتاج القرآن إلى معجزة فانية لم يكن كافيا ولم يتم أمر النبوة وانتظر خاتم ، وكل من كان هذا الخاتم والمتم كانت له هذه الآية . وهكذا جاء في التوراة أن في آخر الزمان تكتب آيات في صدورهم وهكذا وقع ظاهرا وباطنا وبين استكمال الدين وهذا الأمر لزوم ، فإن الدين إذا كان حسب الفطرة ظهر بنفسه لكل ذي قلب سليم إذا ألقى السمع وهو شهيد .

٢- الجواب الثاني يهديك إلى ما يوافق هذا و نورده بعد تقدمة:

فاعلم أن الناس صنفان : الأول من يعرف الحق بالحق ، كما ترى السابقين في كل أمة آمنوا من غير معجزة ، والثاني من لا ينتبه للقول الحق إلا بقاسر كأنهم يجرون كرها ولا تخضع القلوب المنكرة الغافلة المنهمكة في الدنيا مثل الرهبة ، كما ترى في آيات موسى لفرعون ولقومه . وأما الرغبة فلا تغلب على مشتهيات النفوس مما تجدها في دنياها ، وكيف تترك الأهل والمال وكل ما اعتادت به وزينت لها من الشهوات ، فإن الدين ليس فيه إلا قمع النفس . وأما بركات عيسى عليه السلام فلم تكن في شيء من الآيات ، وهكذا قال عيسى عليه السلام (انظر متى ١٢ : ٣٨ — ٤٠) :

---

[1] سورة العنكبوت الآية : ٤٩ .

" حينئذ أجاب قوم من الكتبة والفريسيين قائلين : يا معلم نريد أن نرى منك آية . (٣٩) فأجاب وقال لهم جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تعطى لهم آية إلا آية يونان (يونس) النبي . (٤٠) لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال ، هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال. "

قوله " فاسق " الأصل فاجرة ، وكثر استعمال هذا اللفظ لأمة تركت إلهها الحق كإمرءة خانت مولاها ، وفي القرآن يعبر عنها: ﴿ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴿٤٣﴾ ﴾[1]

وقال مثل هذا بعد ما أطعم أربعة آلاف رجال مع النساء والولدان بخبز سبعة ، كما جاء في متى ١٦ : ١ ــ ٤ :

" وجاء إليه الفريسيون و الصدوقيون ليجربوه ، فسألوه أن يريهم آية من السماء . (٢) فأجاب وقال لهم إذا كان المساء قلتم صحوٌ لأن السماء محمرة . (٣) وفي الصباح اليوم شتاء لأن السماء محمرة بعبوسة ، يا مراؤون تعرفون أن تميزوا وجه السماء ، وأما علامات الأزمنة فلاتستطيعون . (٤) جيل شرير فاسق يلتمس آية و ولا تعطى لهم آية إلا أية يونان النبي ثم تركهم ومضى "

وهكذا جاء في مرقس ٨ : ١١ ــ ١٣ :

" فخرج الفريسيون وابتدأوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء لكي يجربوه . (١٢) فتنهد بروحه (أي تنفس حزنا عليهم) وقال

---

[1] سورة الفرقان الآية : ٤٣ .

لماذا يطلب هذا الجيل آية ؟ الحق أقول لكم لن يعطى هذا الجيل آيـــة "(١٣) ثم تركهم ودخل أيضا السفينة ومضى إلى العبر .

فتبين من هذا أصول :

(١) الذين يطلبون آية عظيمة تملؤهم رعبا ، هـــم الفجـــار وشرار الناس .

(٢) الآية صنفان : الأولى ما يملأ الناس رعبا وتظل أعنـــاقهم لها خاضعة ، كتسع آيات موسى ، وهذه التي كان المنكرون والفـــساق يطلبون ويسمونها سماوية . وربما تستعمل الكلمة مطلقة والمراد هـــذه ، لكونها معهودة عند الطالبين .

والثانية : آيات الرحمة والبركات التى تفـــيض عـــن الأنبيـــاء والصلحاء وملأت الأرض والسماء ، فإن في كل شيء آية على أمـــور الدين وتعليم النبيين ولا تلتفت إليها القلوب القاسية .

(٣) إن الله تعالى منع هذا الجيل آياته المرهبة السماوية إلا آية واحدة ، ولكنه عليه السلام لم يبين سبب هذا المنع غير أنه أشار إلى أن الشرار والفجرة يطلبون آية ولا تعطى لهم آية الا آية يونان النبي .....

(بياض في الأصل)

خصائص هـــذه الـــرسالة

ربما يخطئون من جهة قياس أمور هـــذه البعثة علـــى النبـــوات السابقة ، فلا بد من ذكر خصائص هذه الرسالة ، كمـــا صـــرح بـــه

الكتاب وشهد به الخبر الصحيح المسلم ، فمنها :

١ ــ إن هذه البعثة إكمال وإتمام للدين ، فليس فيها أمر لغير حكمة لنفسه ، فليست فيها أحكام تعبدية وقد بيناه في كتاب أصول الشرائع وكتاب الناسخ والمنسوخ .

٢ ــ لما كانت هي خاتمة وعامة وفطرية ومتمة ، وهذه كلها من باب واحد ، بنيت على سذاجة العبادات وأصول التقوى ، ورفع الواسطة بين الله وعباده ، فلم يبق فيها نبوة ولا كهنوت كما كان في اليهود . وقد ذكرنا مضار الكهنوت في كتاب ملكوت الله .

إنما أمرنا بطاعة الأمير في المعروف والإذعان له و أن رأينا الاثرة علينا إلا إذا وجدنا الكفر بواحا . وأمرنا بالاعتصام بالجماعة والمرابطة والصبر والإصلاح والقتال بالتي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله. وجملة الكلام ههنا أن هذه الشريعة ، شريعة الأحرار والشورى ، وإعمال العقل والفهم ، والاعتصام بالكتاب والسنة ، لكيلا نتخذ أربابا من دون الله . ألا ترى كيف وقع في الشرك والضلال المبين من اعتقدوا في أئمتهم العصمة والوحي ، فعطلوا عقولهم ، فلم يعملوها في فهم الكتاب واتخذوه وراءهم ظهريا . فزين لهم الشيطان كل ضلالة وكفر وخروج عن محجة بيضاء ونور ساطع من كتاب الله ....(بياض في الأصل)

الباب الثالث

في المعاد

موقع الاعتقاد بالمعاد في الدين

و نسبته بالركنين الأولين

الإيمان بالمعاد هو إيمان بصفة العدل والحكمة والرحمة والربوبية والقدرة الكاملة لله تعالى . ثم هو بناء الشرائع والطاعة والاطمئنان بالبر، ثم هو بناء الرسالة والنبوة . فإنما سمي الرسول رسولا لما جاء بهذه الرسالة ، والنبي نبيا لما أخبرهم عن هذا النبأ العظيم . فالمنكر بالمعاد لا يكون مؤمنا بالله وصفاته ، فضلا عن الإيمان برسله ، ولا يكون له دين ولا شريعة إلا هوى نفسه ، ولا يكون عنده معنى للبر والتقوى ، فلا مطمع فيه للهداية والدعوة إلى الخير والإحسان .

فهذا هو أول النبوات ، فإن الرسل إنما بعثوا مبشرين ومنذرين وهو العبارة عن خبر المعاد ، وقد صرح القرآن بذلك مرارا . جاء في أول الوحي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ ﴾[2].

ولما كان الإيمان بالمعاد منطويا في التقوى عرف المتقين به فقال: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ۝٣ ﴾[3]. ولما كان بناء التقوى على الإيمان بالعدل والحكمة من الله تعالى ، فالذين كفروا بالآخرة و لم يؤمنوا بالحق والقسط والجزاء ، لم يتقوا الله وعدله الكامل . فأجمعوا

---

(١) سورة المدثر الآية : ١-٢ .

(٢) سورة العلق الآية : ٨ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢-٣ .

همهم للدنيا وانهمكوا في شهواته . فلا ينفعهم الإنذار لأنهم قطعوا وسائله وسدوا أبوابه ولذلك قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ ﴾[1]. أي متى ما داموا على كفرهم بالمعاد لا سبيل لهم إلى الإيمان .

فعلمنا أن الإيمان بالمعاد هو الأساس للدين ، وأن الإنكار به هو الإنكار بالله ورسوله ، وأنه شرط لقبول الهـــداية والتبرم بهذه الدار الفانية ، وأن الإنكار به هو أكثف غشاوة على القلب وأكبر أسباب الغفلة عن الرب . ولذلك نرى القرآن جعله أساسا لتعليمه ، فأكثر الدعوة إليه في أوائل الوحي ، وألح عليه إلحاحا شديدا ، حتى جعله صنوا لتعليم التوحيد وخالط بينهما ، كما خالط بين الصلاة والزكاة ، فترى التوحيد والمعاد معا . وأوضح الآيات الجامعة بينهما قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ ﴾[2]. ....(بياض في الأصل).

من إفاداته

ربط المعاد والتوحيد

كثيرا ما نرى في القرآن مثل ما قال الله تعالى: ﴿ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ۝٨ ﴾[3]. فبدا لي أن الخالق الحكيم لا يخلق شيئا إلا

---

[1] سورة البقرة الآية : ٦ .
[2] سورة آل عمران الآية :١٨ .
[3] سورة الروم الآية : ٨ .

لمصلحة تحصل منه ، فإذا حصلت هذه جاء أجل الشيء ، وهذه المصلحة أيضا لمصلحة أخرى وإلا وقفت آلاء الله فنظام الخلائق في ترق ورجوع إلى الله تعالى كما قال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[1]

فهو الخالق وإليه المرجع والمآب ، فهو المركز والمحيط ، فلا يسبقه ولا يفوته أحد ، وهو الأول والآخر ، فلا مجال لإله آخر .

ولذلك كثيرا ما ترى في القرآن ذكر التوحيد أو تقبيح الشرك بعد ذكر المعاد ، كما ترى بعد الآية المذكورة: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾[2].

من إفاداته

المقصود من القيامة هو الرحمة على الصالحين . وأما العذاب فمن جهة لزوم العدل ومنه الانتقام للمظلومين ، ومن جهة إقامة الحق فإن المساواة بين المحسن والمسيء حكم بالجور وخبط بالحقائق الثابتة .

والدليل على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾[3]. وأيضا: ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ

---

(1) سورة المؤمنون الآية : ١١٥ .

(2) سورة المؤمنون الآية : ١١٦ .

(3) سورة الأنعام الآية : ١٢ .

مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾[1]. وأيضا: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[2]........

الذنب الموروث

زعمت النصارى أن ذنب آدم موروث ، ونحن نقول إن هذا خلافا للعقل والنقل ، أما العقل فظاهر ، وأما النقل فقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (سورة الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر:١٨، الزمر: ٧). فهذا تقرير النـــزاع .

فأما التوفيق بينهما ، فبأن الموروث إنما هو الجزاء لا الــذنب ، فمن كان عليه حمل ثقيل من الجزاء فله أيضا أجر عظيم . وهكذا جاء في التوراة :" أنا إله غيور نحاسب النبيين وأبناء النبيين إلى النسل الرابع ". فإنا نرى أثر الأعمال السيئة على الأبناء عيانا ....

تذكرة

في الكتب السابقة إنذار بالعذاب الدنيوي ، والقرآن أكثر الإنذار بالعذاب في الآخرة . ومن شدة الحاجة إلى ذكر المعاد لم يقنع بمجـــرد خبر الجزاء ، بل صوره ونقشه في قلوبهم بتصوير الثواب والعقاب، حتى كأنهم يروهما عيانا ، وهذا من كمال الإبلاغ . فلا نرى المعاد مصورا

---

[1] سورة يونس الآية : ٤ .

[2] سورة القلم الآية : ٣٥-٣٦ .

في الكتب السابقة بل قد اكتفى فيها بالجزاء الدينوي حتى أن فرقة عظيمة من اليهود أنكروا به كما جاء في الإنجيل . وهكذا طائفة من الهنود الذين آمنوا بالتناسخ ، فلم يصوروا نعيما ولا عذابا فوق ما يرونهما في هذا العالم ، وضعف أثرهما عليهم ، فكأنهم في غفلة عن عظمة الجزاء ولا يبالون به .

الإيمان بالمعاد فطري لفطرة الإنسان على العدل ، والنظر في تقلب الزمان . والأنبياء إنما ينبهون ويذكرون ما تصدقه الفطرة السليمة وتشهد به الوقائع ....(بياض في الأصل).

من إفاداته

النفس لا تلتفت إلى ما غاب عنها: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ ﴿٣٧﴾ ﴾[1]. فتخويفها بعذاب الآخرة أضعف تخويفا ، وجبر هذا الضعف بوجهين :

إما بشدة العذاب وهوله ، أو بنقل العذاب من الآخرة إلى الدنيا كما في شريعة موسى عليه السلام ، وكما عند الفلاسفة بأن نفس السيئات عذاب في ذاتها وذلة للنفس: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾[2]

المعاد الجسماني

أصر فريق على كون المعاد جسمانيا ، وفريق آخر على كونه

---

(1) سورة الأنبياء الآية : ٣٧ .

(2) سورة الزلزلة الآية : ٧-٨ .

روحانيا مستدلين بأن إعادة المعدوم محال ، ولكن القرآن لا يقول بإعادة الجسم الذي قد تناثر ورجع إلى عناصره الأولى . وأما قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾[1] ففيه إضافة بنان إلى الضمير ومعناه أن البنان الذي يكون له لا ما كان له .

أما أصل النزاع فليس بشيء ، فإن المهم في هذا البحث هو المجازاة . وأما كيفيتها فليست من أمور هذه الحياة . والمحققون لا يشكون في أن الجسم مقوم بقوى غير جسمانية ، ووجود الجسم على تفاوت المراتب من اللطافة ، حتى أن الألطف يقرب من الروح ، ولا شك في أنه لا وجود للجسم إلا وهو أثر للروح وقائم به ..(بياض في الأصل).

مثال عالم الغيب في عالم الشهادة

إنا نرى في القرآن والكتب المقدسة ذكر الأمور التي تكون في عالم الغيب بهيئة أمور عالم الشهادة ، لما أن بينهما مناسبة ، حتى أن طائفة من العلماء قالوا إن هذا العالم ظل لعالم الغيب ، كما أن المعلول ظل للعلة ، فكل ما يقع ههنا فهو واقع هناك . ثم نرى في الأحاديث أمورا ينكشف تأويلها بهذا الأصل .

وهذا الرأي يشبه بما زعم أفلاطن وأتباعه أن الوجود الأصلي إنما

---

[1] سورة القيامة الآية : ٤

هو للمجردات ، فأما الجسمانيات فهي ظلال وخيال . وهذه المسئلة كما هي واضحة بينة لمن ارتاض بالحكمة وتزكى بالتقوى ، فكذلك هي صعبة لمن تبلد ذهنه . واستقصاء هذا البحث أليق بكتابنا العقل وما فوق العقل . وههنا إنا نورد بالأمثلة لتكون سلما لسماء القدس .

الأمثلة :

المثال الأول : الأرض المقدسة مثال للجنة ، فوراثتها للصالحين . ويخرج عنها من يعصي الله كما أن آدم عليه السلام أخرج من الجنة ، ثم بالتوبة يرثها . هكذا ذرية إبراهيم عليه السلام أخرجت منها إذا عصت ، ثم ورثتها وعمرتها بعد الطاعة .

المثال الثاني : الحجر الأسود يمين الله في الأرض ، أي كما أن العهد يتأكد بلمس اليمين ومنه معنى اليمين للقسم ، فكذلك بمسح الحجر يجدد العهد الأول ، كما جاء في القرآن: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾[1]. وهذا إشارة إلى ما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[2]. ولذلك قيل إن الحجر الأسود جاء من الجنة مع آدم ، أو هو الحجر الذي عهد إبراهيم عليه السلام عنده . وكان هذا سنة قديمة ، وإلى الآن باق في الأفغان .

---

[1] سورة يس الآية : ٦٠-٦١ .

[2] سورة الأعراف الآية : ١٧٢

ومهما كـــان فالحجر مثال يمين المعاهد ، فإنه بـــذلك يتأكـــد العهد ، وتعالى الله أن يكون الحجر يمينه علوا كبيرا .

المثال الثالث : الخبز كلمة التوحيد ، كما جاء في صلاة المسيح عليه السلام : " أعطنا خبز يومنا ". وقد فسر المسيح عليه الـــسلام أن المراد به الروح القدس ، ثم فسر أن الحياة هي كلمة التوحيد ، وكذلك فسره في القرآن وسماه الصراط المستقيم ، وقد فسره المسيح عليه السلام بالصراط الـــضيق ، وبـــسط الكـــلام في تفـــسير ســـورة الفاتحـــة ....(بياض في الأصل).

الحجر الأسود يمين الله تعالى

هذا الحجر وحده الذي جمعت فيه أيدي المسلمين من إبراهيم عليه السلام إلى يومنا وإلى ما شاء الله . وجمع الأيدى بمس شيء واحد علامة لاتفاقهم على أمر واحد كما هو معلوم في حلفهم ، ووصل الحبل والأيدي هو العهد كما قال: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [1]. كما فسر بعده قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ أي اتفقوا بعهد الأخوة والصلاح فيما بينكم باسم الله فهكذا هذا الحجر هو الذي تمسكوا به للسلم والصلاح باسم الله وشهادته ، كما هو المعلوم في القسم والشهادة . ولذلك قيل لهذا الحجر إنه يمين الله ، أي كما يوثقون العهود بأخذ اليمين ، فهكذا يوثقونه بمس هذا الحجر ، ويتصل أيدينا بمسه بيد

---

[1] سورة آل عمران الآية : ١٠٣ .

إبراهيم ومحمد عليهما الصلوات وصحبه وجميع المسلمين ، ونحن أجمعون مسسنا حبلا واحدا ودخلنا في جماعة واحدة ، وهذا معنى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ﴾[1]. ومعنى: ﴿ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝ ﴾[2]...

كم من أمثال في القرآن مثلا : يدالله مبسوطة ، غلت أيديهم ، سنسمه على الخرطوم ، سقط في أيديهم ، وغير ذلك . قال المفسرون "وإذا العشار عطلت" تصوير هول القيامة حسب فهم المخاطب ، أظن أنها مثال والمعنى شدة الهول لكل مخاطب ، وأيضا: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ ﴾[3] يوشك أن يكون منه ....

---

[1] سورة الفاتحة الآية : ٦ .

[2] سورة الفجر الآية : ٢٩ .

[3] سورة طه الآية : ٥ .

فهرس موضوعات الكتاب

الرقم	الموضوع	الصفحة
٤٣	دلائل الجبر ونقدها	١٠٧
٤٤	آيات المشيئة التي تمسك بها المجبرون	١٠٨
٤٥	تأويل آيات المشيئة	١٠٨
٤٦	الحكمة الخاصة في إكثار ذكر المشيئة	١١٢
٤٧	عدم الإكراه	١١٢
٤٨	في إبطال الإجبار	١١٤
٤٩	المسلك الجامع	١١٨
٥٠	التكليف بما لا يطاق	١١٨
٥١	الإيمان والأعمال	١٢٠
٥٢	الرؤية	١٢١
	الباب الثاني في الرسالة	**١٢٥**
٥٣	الحاجة إلى الأنبياء	١٢٧
٥٤	منشؤ الخطأ في رأيين باطلين في ضرورة النبوة	١٢٨
٥٥	خصائص زمان البعثة	١٣٠
٥٦	مؤاخذة الله النبي	١٣١
٥٧	تعريف النبي وفاتحة أمره	١٣١
٥٨	حد ملكة النبوة	١٣٦
٥٩	المصلحة الملحوظة في فطرة النبي وكلامه	١٣٨
٦٠	النبي وأمته والمماثلة بينهما	١٤٠
٦١	وجوب طاعة النبي على الأمة	١٤٢
٦٢	نزول الوحي بكلام مسموع	١٤٢
٦٣	موافقة الوحي المسموع بما أودع الفطرة	١٤٧
٦٤	الوحي العام	١٤٨

الرقم	الموضوع	الصفحة
٨٨	إعجاز القرآن	١٨٦
٨٩	وجه الإعجاز	١٨٨
٩٠	جهات مختلفة من البلاغة وتعريف الإعجاز	١٨٩
٩١	لم جعل القرآن معجزا كافيا لهذه البعثة الكبرى	١٩٤
٩٢	خصائص هذه الرسالة	١٩٧
	الباب الثالث في المعاد	**١٩٩**
٩٣	موقع الاعتقاد بالمعاد في الدين	٢٠١
٩٤	ربط المعاد والتوحيد	٢٠٢
٩٥	الذنب الموروث	٢٠٤
٩٦	المعاد الجسماني	٢٠٥
٩٧	مثال عالم الغيب في عالم الشهادة	٢٠٦
٩٨	الحجر الأسود يمين الله	٢٠٨
٩٩	فهرس موضوعات الكتاب	٢١٠